الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد بوضياف المسيلة
قسم الفلسفة

العنوان:

الـديـن عنـد دفـيـد هيـوم

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إعداد الطالب:
ـ بلحاج يونس

إشراف الأستاذ:
ـ بوزبرة عبد السلام

الموسم الجامعي: 2016/ 2017

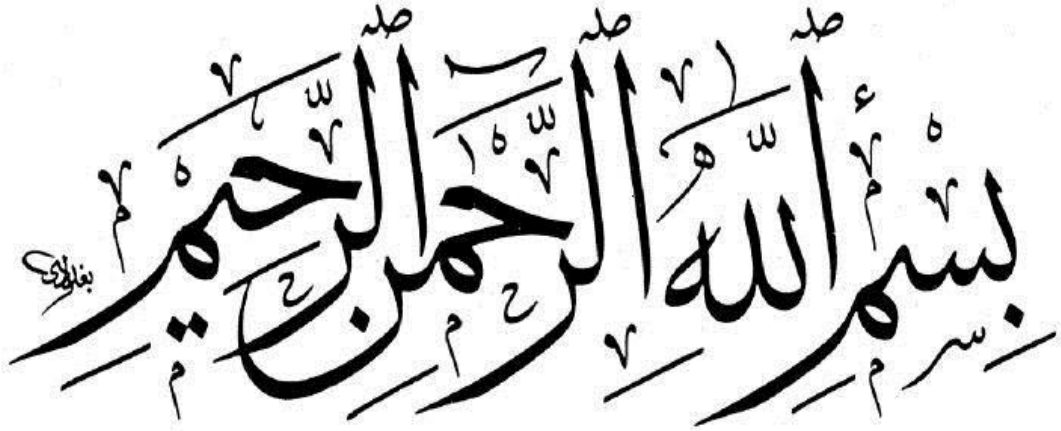
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

_الحمد والشكر لله الذي اعانني على إتمام هذا العمل ,والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى اله وصحبه وسلم تسليما كثيرا, ولان من شكر الناس فكأنما شكر الله ,يسرني ويشرفني ان اتقدم بالشكر والامتنان للأستاذ الفاضل :بوزبرة عبد السلام على متابعته الحثيثة لإثراء هذا البحث وتقديرا له على النصائح والإرشادات التي قدمها لي وأعانتني في إنجاز هذا العمل .

كما يسرني ان اتقدم بالشكر الجزيل للأساتذة الأجلاء, وعلى وجه الخصوص :خشعي عبد النور, زروخي الدراجي الذين لم يبخلوا علينا بنصائحهم التي لم تنقطع طوال مدة البحث.

_واخص بالشكر كذلك كل الاساتذة الكرام في قسم الفلسفة وايضا كل العاملين في هذا القسم بجامعة المسيلة وكل زملائي في القسم ,وكل من اعانني وشجعني على إعداد هذا البحث المتواضع من قريب أو من بعيد.

إهـــداء

إلى أبي وأمي اطال الله في عمرهما ,إلى إخوتي

وجميع أسرتي الذين جعلهم الله عونا لي ومصابيح منيرة في طريقي

ـــإلى الأهل والاقارب كل باسمه

ـــإلى كل من وقف بجانبي واعانني ولو بكلمة طيبة او شعور صادق.

ـــإلى كل الاصدقاء والزملاء وفقهم الله وسدد خطاهم.

ـــإلى كل السالكين والساهرين في طلب العلم والمحبين لأهله.

ـــإلى هؤلاء جميعا اهدي ثمرة جهدي المتواضع.

يونس

مـــقدمـــة

مقـدمــة

إن الاســتقراء المتــأني لنصــوص الفلاســفة الــذين عايشــوا الفــترة الحديثــة يكشــف ان اهتمــامهم بالــدين لا يقــل عــن اهتمــام فلاســفة العصــور الوســطى حــتى وان كــان هــذا الاهتمــام مــن طبيعــة مختلفــة وتحكمــه ظــروف ورؤى فلســفية جديــدة، ربمــا تنتهــي أحيانــا الى الإيمــان وربمــا تجــنح في أحيــان اخــرى الى التجديف المناهض للدين ومع ذلك يبقى دائما حتى في الالحاد المناهض للدين شيء ما ديني.

ولعــل حــديثنا عــن الفــترة الحديثــة وخاصــة عــن موضــوع الــدين يقودنــا مباشــرة دون واســطة الى الحــديث عــن المفكــر والفيلســوف البريطــاني دافيــد هيــوم لا لشــيء ســوى أنــه يمثــل اكــبر دليــل علــى هــذا الحكــم فقــد كــان اهتمامــه بالــدين واضــحا منــذ الصــغر خاصــة وانــه كــان ضــمن اســرة متدينــة بالإضــافة الى تعلقه الشديد بالفلاسفة اللاهوتيين خاصة كالفن .

ومــا يجــب الاشــارة اليــه هــو أن اهتمــام هيــوم بالــدين لم ينقطــع حــتى وان كــان قــد فقــد ايمانــه إلا ان مؤلفاتــه المتعــددة تثبــت عــدم انقطاعــه بالــدين حيــث كــان يؤكــد دائمــا علــى ان كــل بحــث متعلــق بالــدين يعــد ذا اهميــة قصــوى, وقــد جعــل هيــوم الظــاهرة الدينيــة موضــوعا للدراســة التجريبيــة, لهــذا نجــد انــه عــبر عــن اراءه حــول الــدين في كتبــه الدينيــة مثــل: تــاريخ الــدين الطبيعــي وكتــاب محــاورات في الــدين الطبيعــي كمــا اورد مبحــث حــول المعجــزات في كتابــه بحــث في الفهــم الانســاني يطــرح فيــه هيــوم موقفــه في هــذه المؤلفــات حــول الــدين ، وكيــف يجعــل مــن الطبيعــة البشــرية الأســاس في تكــوين أي ديانــة أو معتقــد الــديني، ولعــل المتتبــع لفكــر هيــوم الــديني وخاصــة مــن خــلال مؤلفاتــه هاتــه يجــد أنــه حــاول ان يطــور نظريــة وضــعية في الــدين متجــاوزا بــذلك الــرؤى والنظريــات القديمــة المفســرة للــدين حيــث رفــض التــاريخ المقــدس للــدين، كمــا اســس هيــوم نظريــة في الــدين قائمــة علــى ملاحظــة الطبيعــة الإنســانية مــن حيــث حاجياتهــا وخصائصــها ودوافعهــا لهــذا نقــول ان مشــروع هيــوم كلــه لــيس فقــط في الــدين فقــط بــل حــتى في الجانــب الفكــري او مجــالات اخــرى ينطلــق مــن الإنســان وطبيعتــه كنقطــة مركزيــة، معتمــدا في ذلــك علــى تطبيــق المــنهج التجــريبي القــائم علــى الملاحظــة الاســتنباطية للظــواهر الباطنيــة والذهنيــة وكــذلك الملاحظــة الموضــوعية للســلوك الإنســاني .اي ان هيــوم حــاول بنــاء ســيكولوجية تجريبيــة تســمح لــه بتطبيــق منهجــه وكــذلك إقامــة مشــروع جديــد اطلــق عليــه مــا يســمى {علــم الإنســان} القــائم علــى الملاحظــة العميقــة للمبــادئ الاساســية الــتي تحــرك الــنفس

البشـرية مثـل الانفعـالات والإحساسـات والمشـاعر والإدراكـات والافكـار ،كـل هـذه المفـاهيم تعتـبر النقـاط والمفاتيح الاساسية في مشروع هيوم.

وبمـا أن الحـديث عـن الـدين يقتضـي بالضـرورة الحـديث عـن الاخـلاق باعتبارهـا مبحـث رئيسـي مـن مباحـث الـدين ،وقـد اثبتـت العديـد مـن الدراسـات أن العلاقـة بـين الـدين والاخـلاق في جـل الحضـارات القديمـة كانـت علاقـة جـد وطيـدة لا انفصـام لهـا فـلا يمكـن أن نجـد ديـن بـدون اخـلاق ولا اخـلاق مـن دون ديـن، ولهـذا فـإن أي تطـور يحـدث علـى مسـتوى الـدين فـإن ميدانـه يكـون اخلاقيـا. ولـذا يمكـن القـول أن الأخـلاق تعتـبر بمثابـة الوعـاء الـذي يحتـوى فيـه الجانـب النظـري للـدين، فتكـون بـذلك الوسـط أو المجـال الـذي يسـمح بتطبيـق الـدين ،ولهـذا سـعينا إلى تنـاول الجانـب الاخلاقـي في فكـر هيـوم عامـة وفي فكـره الـديني خاصـة ،حيـث جعـل هيـوم الى جانـب الظـاهرة الدينيـة الاخـلاق موضـوعا للدراسـة التجريبيـة لمـا حـاول تحديـد مصـدرية الاخـلاق وتفسـيرها ، ولم يخـرج هيـوم عـن طريقـه المـألوف حيـث بقـي كالعـادة يبحـث ويرجـع كـل ظـاهرة الى الطبيعـة الإنسـانية وبالضـبط الغريـزة الطبيعيـة كمجـال لكـل مـا يـراد تفسـيره. لنقـول أن هيـوم قـد اعطـى أهميـة كبـيرة لميـدان الاخـلاق مـبرزا فيهـا الـدور الكبـير للطبيعـة الإنسـانية والـتي تعتـبر مفهـوم مركـزي في فلسـفته وفي مـا سمـاه {مشـروع العلـم الإنسـاني }الـذي تبقـى الغايـة والهـدف منـه كشـف وتفسـير مبـادئ الطبيعـة البشـرية ومعرفـة كـل خباياهـا .وهـذا مـا يجعلنـا نتسـاءل: إذا كـان السـؤال المركـزي لهيـوم في فلسـفته هـو محاولـة تأسـيس المعرفـة البشـرية مـن خـلال المـنهج التجـريبي والطبيعـة الإنسـانية فهـل هـذا يعـني ان هيـوم في فلسـفته الدينيـة كـان يسـعى إلى تأسـيس مشـروع ديـني ميتـافيزيقي يمتـاز بطـابع تجريبي ام انه رفض كل ما هو ميتافيزيقي بما في ذلك الدين؟

وتندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات :

ماذا يقصد هيوم بمشروع علم الإنسان؟

وأيـن يظهـر الفكـر الـديني فـي فلسـفة هيـوم ؟وهـل يـرفض هيـوم الـدين كونـه قـائم علـى مرتكـزات ميتافيزيقية؟

ما مدى قيمة الفكر الاخلاقي في فلسفة هيوم عامة وفي فكره الديني خاصة؟

ومـن أجـل دراسـة جيـدة للموضـوع والإجابـة علـى الإشـكالية والتسـاؤلات الفرعيـة وضـعنا هيكلـة للبحـث تـتلاءم وطبيعـة الموضـوع ,فقمنـا بتقسـيم البحـث إلى مقدمـة وثـلاث فصـول وخاتمـة ,ففـي المقدمـة حاولنـا تقـديم تمهيـد عـام وشـامل لموضـوع البحـث مـن أجـل تبسـيطه وتسـهيله أكثـر، ثم قمنـا بطـرح الإشـكالية مـع توضـيح الخطـة المتبعـة لمعالجـة الموضـوع وتفصـيله, مشـيرين بعـد ذلـك إلى المـنهج المتبـع في هـذه الدراسـة ومـبرزين في نفـس الوقـت دواعـي اختيـار الموضـوع وايضـا ذكـر بعـض الدراسـات السـابقة لهذا الموضوع التي تناولت فلسفة هيوم او جانب منها.

_أمـا في مـا يخـص الفصـل الاول فقـد تناولنـا فيـه الجانـب الفكـري لدفيـد هيـوم مـن خـلال عـرض نظريتـه في المعرفـة القائمـة علـى اسـاس الإدراك الحسـي, مـع ذكـر اهـم مؤلفاتـه مـبرزين ايضـا خلفيتـه الفكريـة كغـيره مـن الفلاسـفة وأبـرزهم جـون لـوك وجـورج بـاركلي في الجانـب المعـرفي وكـالفن في الجانـب الـديني, لنختـتم الفصـل بعـرض عـام لموضـوع البحـث تخللـه اهـم النظريـات المفسـرة للـدين مـع ذكـر أهـم الـديانات التاريخية, مع التعريج على موضوع الدين في الفترة الحديثة, وهذا من اجل التمهيد للفصل الثاني.

_أمـا الفصـل الثـاني فهـو الفصـل المركـزي في موضـوع البحـث ,حيـث يتنـاول اهـم واكـبر القضـايا والافكـار الـتي تعتـبر النقـاط المفصـلية والمركزيـة في الفكـر الـديني لهيـوم أهمهـا فكـرة الله والمعجـزات وخلـود الـروح، حيـث سـعينا مـن خلالهـا إلى توضـيح موضـوع البحـث اكثـر والـتي راينـا ان معالجتهـا تقربنـا اكثـر مـن معالجـة وفهـم الظـاهرة الدينيـة اكثـر , بالإضـافة إلى التعـريج علـى أهـم فكـرة عنـد دفيـد هيـوم وهـي فكـرة السببية .

_أمـا الفصـل الثالـث والـذي وسمنـاه بـالعنوان التـالي: مكانـة الفلسـفة الاخلاقيـة في الفكـر الـديني الهيـومي وسـعينا مـن خلالـه أن نبـين قيمـة الاخـلاق في فكـر هيـوم وايضـا توضـيح مـا إذا كانـت هنـاك علاقـة بـين الـدين والاخـلاق في الفكـر الـديني الهيـومي ,مـع إشـارة إلى فكـرة الميتافيزيقـا والسـعي لمعرفـة العلاقـة ايضـا بينهـا وبـين الـدين، خاصـة وان هيـوم تجـريبي ولا يـؤمن إلا بالتجربـة, لنختـتم الفصـل بـذكر اهـم الفلاسـفة المتـأثرين بهيـوم مـن اجـل إبـراز قيمـة الرجـل ومـدى تـأثيره في الفكـر البشـري ,لنختـتم الفصـل بتقـديم جملة من الإنتقادات التي وجهها له بعض من المفكرين والفلاسفة والباحثين.

لقـد اتبعنـا طيلـة البحـث المـنهج التحليلـي غالبـا مـع الاعتمـاد في بعـض الاحيـان علـى المـنهج النقـدي ، بالإضـافة الى الاعتمـاد في بعـض الاحيـان علـى المـنهج الإسـتنتاجي, أمـا الجانـب التحليلـي فهـو

الغالب على الموضوع فقد اعتمدنا عليه في استقراء وفهم نصوص هيوم ,اما المنهج النقدي فكان لزاما علينا من أجل توضيح الافكار المكتسبة وإزالة الغموض وايضا إبراز وجهة النظر الخاصة من خلال الاعتماد طبعا على اراء المفكرين والباحثين المتميزين بالتفكير العقلي والفلسفي العميق. اما المنهج الإستنتاجي فمن الضروري الاعتماد عليه من اجل استنتاج موقف هيوم من خلال مراجع وافكار الباحثين, وهذا طبعا راجع لقلة المصادر ما يلزم علينا الاستنتاج من خلال المقارنة بين فكار الباحثين والمؤلفين لأجل الخروج بموقف وفكرة واضحة.

أما فيما يخص أهم المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها بصفة كبيرة نذكر أهمها: بالنسبة للمصادر نذكر تحقيق في الذهن البشري والثاني بعنوان محاورات في الدين الطبيعي. وبالنسبة للمراجع فنذكر كتاب الدين والميتافيزيقا عند هيوم لمؤلفه محمد عثمان الخشت وهو أهم مرجع اعتمدنا عليه ,أما فيما يخص المصادر باللغة الأجنبية فقد استعملنا مصدرين كون أن طبيعة الموضوع تقتضي ذلك هما: the natural history of religion والأخر بعنوان atrealise of humen nature.

وترجع داوفع اختيارنا لهذا الموضوع إلى مجموعة دوافع منها الموضوعية ومنها ما هو الذاتية، فأما عن الموضوعية نذكر :قلة البحوث والدراسات حول فلسفة هيوم في الجامعات الجزائرية والسبب ربما يعود الى قلة المصادر المترجمة، وأما الدوافع الذاتية فنذكر منها: الإهتمام الكبير بالمواضيع الميتافيزيقية والغيبية خاصة التي تبحث في امور الدين، بالإضافة إلى الإهتمام بالفلسفة الحديثة ومفكريها.

وقد واجهتنا خلال إعداد هذا البحث مجموعة من العوائق من بينها قلة المصادر المترجمة إلى اللغة العربية ما أدى بنا إلى الاعتماد بشكل كبير على المراجع، بالإضافة إلى صعوبة استخلاص موقف هيوم من بعض القضايا خاصة قضية الدين, كونه مشتت في آراءه بين الشك ونزعته التجريبية التي تجعلنا نعتقد بأن لهيوم موقفين من المشكلة الواحدة. وقد كانت هذه العوائق بمثابة الحافز لنا الذي دفعنا للاجتهاد والمثابرة والعمل ويبقى الله هو المستعان وهو ولي التوفيق.

أما اهداف البحث التي نسعى ونريد الوصول إليها من خلال هذا البحث هي: الإجابة عن الإشكالية والتساؤلات التي طرحت في المقدمة او ضمن البحث ،وايضا الإطلاع اكثر على الأراء التي

كانـت سـائدة في الفـترة الحديثـة خاصـة عنـد فيلسـوفنا دفيـد هيـوم باعتبـاره اهـم اقطـاب المـنهج التجـريبي كما يعتبر آخر محطات المنهج التجريبي.

أمـا بالنسـبة للدراسـات السـابقة المتعلقـة بموضـوع البحـث فإننـا نجـد ان البحـث في الجامعـات الجزائريـة حـول فلسـفة هيـوم شـبه غائـب ،باسـتثناء بعـض الدراسـات نـذكر منهـا :دراسـة بعنـوان {مشـكلة الجـوهر لـدى الفلاسـفة الإنجليـز "لـوك بـاركلي وهيـوم", للباحـث طحطـاح مـبروك تحـت إشـراف الـدكتور زرارقـة عطـاء الله ,والبحـث هـو عبـارة عـن مـذكرة ماجيسـتير مـن جامعـة الجزائـر 2,وقـد نوقشـت سـنة 2006,امـا علـى المسـتوى العـربي فـإن الإهتمـام بفكـر وفلسـفة هيـوم كـان متوسـط بعـض الشـيء إلا ان هنـاك بعـض الإهتمامـات والدراسـات مـن قبـل بعـض المفكـرين والبـاحثين مـن بيـنهم: زكـي نجيـب محمـود ويمكن القول انه اكبر المهتمين بفكر دفيد هيوم بالإضافة إلى محمد عثمان الخشت .

الفصل الأول :

مدخـل تمـهيـدي

المباحث :

- السيرة الذاتية لدفيد هيوم
- الخلفية المعرفية لهيوم.
- الظاهرة الدينية

الفصل الأول: مدخل تمهيدي

تـمـهـيـد:

إن ذكـر مصـطلح المـنهج التجـريبي يسـتدعي مباشـرة الحـديث عـن المفكـر و الفيلسـوف الإنجليـزي دفيـد هيـوم ,حيـث يعـد أهـم أقطـاب المذهب التجـريبي في العصـر الحـديث لا لشـيء سـوى لأنـه عـاش في القـرن 18 وهـو مـا يعـرف بعصـر العقـل، خاصـة أنـه في هـذه الفـترة كـان الإيمـان بالعقـل قـد وصـل إلى أعلـى و أقصـى درجاتـه، فـأتى دفيـد هيـوم وطـرح فكرتـه المركزيـة وأعتـبر أن جميـع المعـارف الـتي اكتسـبها الإنسـان يجـب إرجاعهـا الى التجربـة ولا وجـود لأفكـار فطريـة فكـل شـيء خاضـع للتجربـة بمـا في ذلـك العقـل، ويمكـن أن نطلـق علـى دفيـد هيـوم فيلسـوف الطبيعـة البشـرية لأن مشـروعه كـان يتضـمن دراسـة علـم الإنسـان ,هـذا المشـروع حسـبه يجـب ان يكـون مـن خـلال تقسـيم مبـادئ الطبيعـة البشـرية ومحاولـة فهمهـا، ولفهـم مشـروع هيـوم نسـلط الضـوء علـى فلسـفته ونحـاول تقـديم وعـرض مباحثهـا بالإضـافة إلى مكانتـه في الفلسفة الإنجليزية خاصة و الفكر الغربي عامة وهذا ما يجعلنا نتساءل :

ترى ما هو النسق العام لفلسفة هيوم؟

وماهي أهم المباحث التي عالجتها فلسفته التجريبية ؟

وإلى من تعود الخلفية المعرفية لهيوم ؟

المبحث الأول: السيرة الذاتية لدفيد هيوم

المطلب الأول: حياته

ولـد دفيـد هيـوم ليلـة 26 مـن أفريـل **1711م** في أدنـبرة عاصـمة اسـتكلندا الواقعـة في شمـال بريطانيـا لوالـد متوسـط الحـال ولأم محاميـة، تـوفي والـده وهـو في الثانيـة مـن عمـره ولم تتـزوج أمـه بـل كرسـت حياتهـا لتربيـة ولـدها الوحيـد[1]، دخـل دفيـد هيـوم الجامعـة في سـن 12 سـنة لدراسـة المحامـاة حسـب رغبـة أمـه لكنـه اتجـه صـوب دراسـة الفلسـفة[2]، فقـد كـان شـغفه بالفلسـفة واضـحا منـذ صـباه فضـحى في سـبيلها بدراسـة القـانون ثم ضـحى بالتجـارة، كـان يطمـح إلى أن يقـدم مـذهب يضـارع العلـوم الطبيعيـة دقـة وإحكامـا بفضـل تطبيـق مـنهج الإسـتدلال التجـريبي، يقـال أنـه فـرغ مـن تحديـد موقفـه الفلسـفي الأساسـي في بـواكر حياتـه إذ نشـر أول كتـاب لـه وأفضـل مبحـث لآرائـه في سـن 27 في 600 صـفحة إلى أنـه وبعـد تعرضـه لـبعض الأمـراض الـتي أثـرت عليـه كثـيرا مـا بـين عـام 1729-1734م تـرك الفلسـفة إلى حـين وسـافر إلى فرنسـا بقـي هنـاك 3 سـنوات مكـث في مدرسـة لافلـيش الـتي تلقـى فيهـا ديكـارت تعليمـه أتم خلالهـا كتابـه الـذي يعتـبر أدق كتبـه[3]، كمـا يعتـبر دفيـد هيـوم أحـد أهـم الفلاسـفة لأنـه وصـل بفلسـفة لـوك وبـاركلي التجريبيـة إلى نتيجتهـا المنطقيـة ففـي إتجاهـه مـن المسـتحيل المضـي إلى أبعـد ممـا وصـل إليـه[4]، وفي عـام 1737م إتجـه إلى لنـدن لإكمـال عمليـة تـأليف الكتـب وبعـد عـامين تقـدم لوظيفـة أسـتاذ الفلسـفة بجامعـة أدنـبرة إلا أنـه لم يأخـذ الوظيفـة لأسـباب تتعلـق بميولـه الإلحاديـة عندئـذ دعـاه كبـار الشخصـيات في إنجلـترا ليكـون مدرسـا خاصـا لأنجـالهم فقبـل هـذه الوظيفـة لمـدة 3 سـنوات إشـتغل بعـدها في سـلك الدبلوماسـيين في فرنسـا ممـا أتـاح لـه فرصـته لادخـار مـال وفـير، فـاعتزل الخدمـة في الوظـائف العموميـة وتفـرغ

[1] ايوب ابو دية، العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت لبنان،ط1، 2009، ص228

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء للطباعة والنشر,الإسكندرية،2001،ص322

[3] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف القاهرة،ط5،ص172

[4] برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ، الدار المصرية العامة للكتابة، دس، ص253

للكتابة[1]، وفي عام 1763م دعته الحكومة الإنجليزية لشغل منصب كاتب السفارة البريطانية بباريس فكان موضع حفاوة في الأوساط الفلسفية و الأدبية فذاع سيطه في ألمانيا وفرنسا أكثر مما ذاع في إنجلترا.

عاد إلى وطنه سنة 1766م وبصحبته روسو الذي كان يطلب ملجأ في إنجلترا وأنزله ضيفا في بيت له ,ثم عين وزيرا لإستكلندا سنة 1768م ولكنه إعتزل السفارة في السنة التالية وأقام بمدينة أدنبرة مسقط رأسه حتى وفاته يوم 25 أوت "أغسطس" عام 1776م – 1777 [2]

كان مولعا بالأدب منذ نعومة أظافره فقد عشقه طيلة حياته وكان أعظم مصدر لمتعته وقد ساعده الأدب على التفوق في عالم الكتابة, وفي نهاية حياته أمضى فترة طويلة في كتابة تاريخ إنجلترا، كما أن هيوم اكتسب خلال حياته كثيرا من الأصدقاء من بينهم آدم سميث مؤسس علم الإقتصاد الحديث وإدوارد جيبون المؤرخ الإنجليزي المعروف .

المطلب الثاني:مؤلفاته

أفنى دفيد هيوم سنين عمره في محراب الفكر، وقد أثمرت هذه السنين الطويلة عن عدة مؤلفات هامة تركها لنا هيوم كان لها عظيم الأثر خاصة بعد وفاته لدى الكثير من المفكرين[3] ، يقال أن قد فرغ من تحديد موقفه الفلسفي الأساسي في بواكر حياته فأشبه باركلي في التفكير العقلي[4]، يعتر كتابه الفلسفي الذي عنونه ب"رسالة في الطبيعة البشرية" أهم كتبه الرئيسية حيث كتبه بينما كان يعيش في فرنسا إبان السنوات من 1734م إلى 1737م وقد نشر الجزآن الأول و الثاني سنة 1739م والجزء الثالث سنة1740م وقد كان شابا يافعا لم يتم الثلاثين من عمره ولم يكن مشهورا بحيث كانت نتائجه لا تجد ترحيبا عند كل المدرسين تقريبا[5]، ثم نشر ملخصا لها في عام 1740م،كما

[1] أيوب أبو دية، العلم والفلسفة الاوروبية الحديثة،ص ص 322، 323

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص323

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[4] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص172

[5] برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص252

نشر كتابه تاريخ إنجلترا في ستة أجزاء وحاز على شهرة واسعة نتيجة لذلك، وبعدها نشر كتاب آخر بعنوان "بحث في فهم الإنساني"عام 1748م الذي شرح فيه نظريته في المعرفة[1]، ثم أردفه بكتاب بحث في المبادئ الأخلاقية سنة 1751م ،والجدير بالذكر أنه لم يكتفي بالكتب فقط بل اعتمد على المقالات أيضا من خلال كتابته مقالات أخلاقية وسياسية سنة 1745م كما استمر في تأليف الكتب المتعلقة بالدين من خلال كتاب تاريخ الطبيعي للدين سنة 1756م-1761م وأيضا كتابه محاورات في الدين الطبيعي الذي نشر بعد وفاته، كما عالج هيوم أيضا السياسة من خلال كتاب أحاديث سياسية سنة 1756م وكذلك خطاباته والتي نشرت أيضا بعد وفاته وختم مؤلفاته بكتابه الذي عنونه ب"حياتي" الذي كتبه قبل وفاته ولكن نشر بعد وفاته [2].

المطلب الثالث:نظرية المعرفة عند هيوم

يطلق مصطلح الإمبيرية على مذهب في المعرفة ينطلق من تقرير أن الخبرة الحسية هي المصدر الوحيد لما نعلم، وذلك في مواجهة المذهب العقلاني القائل بإسناد كل ما نعلم عن العالم وأنفسنا إلى الأفكار الفطرية، كما تستند الإمبيرية إلى رذل أي دعوى بعلمان كل ما يتعدى الخبرة والتجربة وأي كلام عقلاني، وقد كان دفيد هيوم قطب الفلسفة الأمبيرية خاصة لما أخرج الكلام عن الكائن بما هو كائن والبحث عن العلل الأولى من دائرة التفلسف، فالفلسفة الحديثة حسب ما يذكر مؤرخو الأفكار تتسم بميسم نسيان السؤال عن الكون والاهتمام بالسؤال: ما المعرفة وكيف نعرف؟[3]

لقد استفاد دفيد هيوم في عصر التنوير من ذلك الإيمان الكبير بسلطة العقل الذي ارتكز عليه الفكر في القرن 18 لما له من قدرة على حل مشكلات الإنسان و الطبيعة معا، فكان من الطبيعي أن يشتد إيمان الناس بعقولهم لما شهدوه من غزارة الإنتاج العلمي في القرنين 16 و 17، فانطلق هيوم من

[1] ايوب ابو دية، العلم والفلسفة الاوربية الحديثة، ص228

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص326

[3] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ترجمة محمد محجوب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2008، ص ص 39، 40

هـذا الجـو بالإضـافة إلى اعتمـاده علـى الدراسـات السـابقة عليـه واعتنـق الفكـرة القائلـة بـأن جميـع معارفنـا يمكن ردها إلى التجربة[1].

إن نظريـة المعرفـة عنـد هيـوم تقـوم بشـكل أساسـي علـى ملكـتي الـذاكرة و الخيـال فهمـا حسـب هيـوم يقومـان بمحاكـات إدراكـات الحـواس ونقلهـا، ويمكـن القـول عنهمـا أنهمـا عنـدما تـنفعلان بـأكبر نشـاط فإنهمـا يصـوران الموضـوع علـى نحـو مـن الحيويـة يجعلنـا نقـول أننـا نـراه ونلمسـه او نكـاد، كمـا أنـه بإمكاننـا أن نقسـم إدراكـات الـذهن جميعهـا إلى صـنفين أو نـوعين تتميـزان بـالاختلاف في درجـة القـوة والحيويـة وهمـا الانطباعات و الأفكار[2] .

والمشكلة المطروحة :أين يكمن الدّور الوظيفيّ لكل من الذاكرة و الخيال في نظرية المعرفة عند هيوم؟

يـذهب هيـوم إلى مـا ذهـب إليـه جـون لـوك مـن قبلـه, الى أن العناصـر الـتي تتـألف منهـا معرفتنـا كلهـا هـي المـدركات البسـيطة الـتي تتلقاهـا عقولنـا وتنفعـل بهـا دون أن يكـون لهـذه العقـول أي أثـر فعـال[3]، ويجيبنـا هيـوم هنـا عـن التسـاؤل السـابق حـول دور الـذاكرة و الخيـال بقولـه: «إن التجربـة اليوميـة تـدلنا علـى أنـه إذا مـا مثـل للعقـل انطبـاع مـا فـإن ذلـك الانطبـاع يظهـر مـن جديـد في العقـل باعتبـاره فكـرة، وهـذا الظهـور يحـدث بإحـدى الوسـيلتين فإمـا أن يـتم لـه ذلـك حـين يحـتفظ في ظهـوره الجديـد بدرجـة منخفضـة مـن حيويتـه الأولى، بحيـث يكـون كأنمـا هـو وسـط بـين أن يكـون انطباعـا وأن يكـون فكـرة، وأمـا أن يـتم ذلـك حـين يفقـد تلـك الحيويـة حيـث يتحـول إلى فكـرة و الملكـة الـتي نسـتعين بهـا علـى إعـادة انطباعاتنـا في الحالـة الأولى تسـمى بالـذاكرة و تسـمى الأخـرى بالخيـال"[4]. ومـن خـلال هـذا القـول لهيـوم يتضـح لنـا أن هيـوم يـربط بـين الـذاكرة و الخيـال وبـين الانطباعـات والأفكـار، فهـذه الأخـيرة إنمـا هـي عبـارة عـن آثـار حسـية تقـادم عصـرها ووهنـت قوتهـا وضـعفت صـورها، أمـا الانطباعـات فهـي عبـارة عـن آثـار حسـية أقـوى

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص ص325 ,326

[2] دفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهنة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2008ص12

[3] .كي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1936، ص234

[4]HUME DAVID ¨ATREALISE OF HUMEN NATURE;L.A SELBY_BIGGE OXFORD UNIVERCITY PRESS;UK;"1739;P8

في العقـل أثـرا واوضـح ظهـورا ،مـا دام الأمـر كـذلك فـلا يمكـن اذن أن تنشـأ في العقـول أفكـار إلا إذا سـبقتها أفكـار حسـية، فالأفكـار إذن هـي مجـرد انطباعـات سـابقة والعلاقـات بـين الأفكـار يـتم اكتشـافها بواسـطة عمليـة الفكـر كمـا إن هـذه الأفكـار تنقسـم إلى نـوعيين أفكـار بسـيطة كـاللون ومركبـة كالتفاحـة لهـا لون وطعم ورائحة وبتحليل الأفكار نجد انها أفكار بسيطة لا غير[1].

1. الذاكرة والخيال:

ثم يفـرق هيـوم بـين أفكـار الـذاكرة و أفكـار الخيـال فيقـول: إن الأولى أصـح و أقـوى مـن الثانيـة, لأنهـا صـور مباشـرة لمـدركاتنا إذ أن الـذاكرة تحـتفظ بالصـورة الأصـلية الـتي أدركنـا عليهـا الأشـياء، أمـا الخيـال فيتنـاول هـذه الصـور الفكريـة بـالتغيير و التحويـل وبعبـارة أخـرى: إن الـذاكرة تقـف عنـد حـدود التجربـة، أمـا الخيـال فـلا يقيـد نفسـه بـذلك ولهـذا يقـع في كثـير مـن الأخطـاء ويختلـق كثـيرا مـن الـدعاوي الـتي لا يمكـن البرهنـة عليهـا[2].فالـذاكرة اذن اصـدق واوضـح في افكارهـا مـن ملكـة الخيـال الـتي تكـون افكارهـا امـا فيهـا زيـادة او تعاني من نقصان.

بنـاءً علـى هـذا فـإن الانطباعـات تـرتبط بالـذاكرة أمـا الأفكـار الباهتـة فترتـبط بالخيـال, يقـول هيـوم موضـحا هـذا "واضـح مـن النظـرة الأولى أن أفكـار الـذاكرة أشـد في حيوتهـا وقوتهـا مـن أفكـار الخيـال وأن الملكـة الأولى تصـبغ موضـوعاتها بـألوان أكثـر تميـزا مـن تلـك الـتي تسـتخدمها الملكـة الثانيـة، فـنحن إذا مـا تـذكرنا حادثـة ماضـية تـدفقت فكرتهـا في العقـل تـدفقا فيـه قـوة ودفـع، في حـين يكـون الإدراك في حالـة الخيال ضعيفا فاترا[3].

ومـن خـلال مـا سـبق يتجلـى دور كـل مـن الـذاكرة و الخيـال في نظريـة المعرفـة عنـد هيـوم ولكـن هنـاك طبعـا اخـتلاف في عملهمـا ،فالـذاكرة هـي اسـترجاع للحـوادث الماضـية دون نقصـان أو زيـادة أمـا الخيـال فيقـوم بالتعـديل و التركيـب و التغيـير دون تقييـد بـالواقع، لاكـن هـذا الإخـتلاف لا يعـني عـدم وجـود علاقـة بينهمـا بـل يعمـلان معـا ويقومـان بـدور كبـير حيـال مـا ترسـله إليهمـا الحـواس ولا يمكـن إعـادة إحيـاء

---

[1] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص ص234، 235

[2] نقلا عن: المرجع نفسه، ص236

[3] Hume david¨atrealise of humen nature.ibid.p9

الخبرات الماضية من دون هاتين الملكتين فالإنسان مثلا إذا أراد تخيل شجرة في الطبيعة فلا بد عليه أن يستحضر صورة الشجرة في ذاكرته من أجل أن يتخيل شجرة بكامل صفاتها, و من خلال كل هذا يتضح لنا ان العلاقة بين الذاكرة و الخيال هي علاقة تكامل فكلاهما مكمل للآخر وبالتالي لهما دور كبير في نظرية المعرفة عند هيوم

2_تداعي الأفكار:

إن نظرية المعرفة كذلك ترتبط بالعلم النيوتني أي بعلم إسحاق نيوتن إذ يقول هيوم:" طالما أن ذرات المادية لا تتجزأ و النقط المكانية لا أبعاد لها والآنات الزمانية لا دوام لاها، فهذه الأشياء الطبيعية جميعها ليست بذرات مدركة وليست قابلة للإدراك الحسي" وطالما أن أفكارنا مصدرها التجربة فلا مادة هناك لأن صفاتها من خلق عقولنا و العقل لا يدرك سوى بعض الإدراكات الحسية المترابطة بقوة الخيال ولكن المشكلة المطروحة هنا كيف تتداعى الأفكار في العقل الإنساني؟[1]

يقول هيوم:" بديهي أن ثمة ترابط بين مختلف خواطر الذهن أو أفكاره وأن هذه الخواطر و الأفكار لدى ظهورها للذاكرة أو المخيلة إنما تتوارد على قدر ما من المنهج و الانتظام"، وهذا دليل على أن الأفكار البسيطة المتضمنة في الأفكار المركبة إنما كانت موصولة ببعضها البعض، بضرب من المبدأ الكلي الذي يؤثر سويا في النوع الإنساني برمته، والسر وراء هذا الترابط بين الأفكار يظهر في ثلاث مبادئ وهي: التشابه، التماس في الزمان و المكان، وثالثا السبب و المفعول[2].وهذه هي القوانين الثلاث التي يركز عليها هيوم خاصة مبدأ السببية.

إن هذه المبادئ عبارة عن قوانين تداعي المعاني وهي من تكون العلاقات بين الأفكار، وتعتبر القوانين الأولية للذهن تعمل فيه دون تدخل منه فهيوم يقصر وظيفة الذهن على مجرد قبول الانفعالات فتحصل منها المعاني حصولا آليا بفضل هذه القوانين[3].ونركز هنا على كلمة آليا اي مباشرة دون واسطة الذهن.

---

[1] نقلا عن: أيوب ابو دية، العلم والفلسفة الأوربية الحديثة، ص ص232، 233

[2] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري, ص ص47، 48

[3] يوسف كرم, تاريخ الفلسفة الحديثة، ص176

3_قوانين تداعي الافكار:

وأول قانون هو قانون التشابه وهو يتعلق بكل قضية يتم الحكم على صدقها بالحدس أو البرهان القياسي المنطقي مثل فكرة المربع فلا داعي لوجود مربع واقعي حتى تتصور المربع كشكل هندسي، أما القانون الثاني فهو قانون التقارب الزماني أو المكاني أي لا يمكن الحكم على أي قضية بالصدق أو النفي إلا بربطها بمكان وزمان معينين، أما القانون الثالث والأخير وهو رابطة العلة والمعلول "السببية" فكل الحوادث حسب هيوم التي تقع في التجارب اليومية تقوم على أساس السببية أي علاقة السبب بالمسبب، من خلال هذه العلاقة يتم الحكم على وقائع العالم الطبيعي[1].وهذه القوانين تعمل كل منها على حدى فلا يشترط اشتراكها في العمل من اجل الحكم على الفكرة.

ويعتبر قانون السببية أهم هذه القوانين كونه يمكّننا من أن نستدل على شيء أو حادثة ما من خلال شيء آخر أو حادثة أخرى" إنها العلية فقط التي تولد مثل هذا الارتباط، بحيث تزودنا بتأكيد من وجود او فعل موضوع، على أنه يتبع أو يسبق بوجود آخر"[2].

ويقسم هيوم من خلال هذه القوانين التي تشكل العلاقات بين الأفكار في الذهن العلاقات العلوم إلى نوعان وهي : علاقات بين إنفعالات قائمة في أن بعض الانفعالات علل والبعض الآخر معلولات كما هو الحال في العلوم الطبيعة ،فهذه العلاقة التي تسمح لنا بالاستدلال بالمعلول الحاضر على العلة الماضية و بالعلة الحاضرة على المعلول المستقبل، أما النوع الثاني فهي علاقات بين معاني وهي التي تتألف منها الرياضيات فهيوم يميز بين الجبر و الحساب من ناحية و الهندسة من ناحية أخرى كونه يعتبر الثانية غير ثابتة ولا يمكن استنباط نتائج منها عكس الجبر و الحساب المضبوطان اللذان يسمحان بتأليف مقادير، و المعادلة بينهما بما يطابق الواقع في حين أن الوحدات المكانية ليست لها في الواقع مثل ذلك[3]، وبهذه المعادلة تتداعى الأفكار للذهن من خلال الحواس بمشاركة الخيال و الذاكرة طبعا من اجل كشف العلاقات بين المعاني من خلال قوانين التداعي.

---

[1] ايوب ابو دية، العلم والفلسفة الأوربية الحديثة، ص ص233، 234

[2] برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص260

[3] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص176

المبحث الثاني: الخلفية المعرفية لهيوم.

إن دفيد هيوم وكغيره من الفلاسفة يجب أن تكون آراءه و أفكاره الفلسفية قد استلهمت من بعض المفكرين السابقين عنه كون الفلسفة علاقة تأثر و تأثير،وبما أن هيوم يعتبر قائد المرحلة الأخيرة في المدرسة التجريبية الإنجليزية فقد سبقه بذلك بعض الفلاسفة والمفكرين السابقين عنه في صورة جون لوك و جورج باركلي وهذا ما جعلنا نتساءل:

ترى فيم تجلى تأثير جون لوك وباركلي في التفكير الهيومي؟

هل حذى حذوهم أم خالفهم؟

يعتبر دفيد هيوم أهم فلاسفة العصر الحديث وأحد أهم أقطاب المدرسة التجريبية الإنجليزية لأنه وصل بفلسفة لوك وباركلي التجريبية إلى نتيجتها المنطقية وهي الشك, ففي إتجاهه من المستحيل المضي و الوصول إلى أبعد ما وصل إليه[1]، ويتجلى تأثر هيوم بلوك و باركلي جليا وواضحا خاصة في بداية حياته ونعومة أضافره ففي هذه المرحلة من حياته كان شديد التأثر بجون لوك .فيا ترى ماهي أهم المحطات التي تأثر فيها هيوم بلوك؟

أولا: جـــون لـــوك:* locke.jhon (**1792-1804**) يعتبر أحد أكبر ممثلي النزعة التجريبية الإنجليزية جاء بعد فرانسيس بيكون وكان أعمق منه في توضيح المذهب الحسي و الدفاع عنه، فاستحق أن يدعى زعيمه في العصر الحديث وقد يتضح تأثر هيوم بلوك في كثير من المحطات ,بداية بأن كل أفكارنا صادرة عن التجربة وأنه ليس لدينا افكار فطرية ولم يعد هناك دور مهم للعقل سوى التذكر وإعادة تكوين الصورة الحسية[2]، وهذا ما أكده هيوم وانطلق منه في تأسيس فلسفته إذ نجد لوك

---

[1] برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ص253

* فيلسوف انجليزي واقتصادي وكاتب سياسي متأثر بديكارت وغاسندي من مؤلفاته "رسالة في التسامح" ومؤلفه الرئيسي "مقال في الفهم الإنساني" والذي يشرح فيه لوك نظريته في المعرفة التي تسمى التجريبية المادية والتي تقوم على أن العالم الخارجي الموجود موضوعيا هو مصدر المعرفة، وقد رفض المذهب الديكارتي في الأفكار الفطرية وأعلن أن الخبرة هي المصدر الوحيد لكل الأفكار (كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2000، ص499)

[2] ايوب ابو دية، العلم والفلسفة الروبية الحديثة، ص ص231، 232

قـد أكـد في أهـم مؤلفاتـه وهـو مقالـة في العقـل البشـري خاصـة في البـابين الأول و الثـاني علـى أن العقـل البشـري عـاجز ومحـدود ،لمـا حـاول إخضـاع العقـل للاختبـار لمعرفـة حـدود قدرتـه علـى اكتسـاب المعرفـة الصحيحة فوجد أنه قاصر ومحدود فيقول :" لا ينبغي أن نغدو حدود ما تستطيعه ملكتنا"[1].

كمـا أن هيـوم قـد تـأثر أيضـا بلـوك في فكـرة الآثـار الحسـية و الأفكـار الـتي أكـدها هيـوم وفصـل فيهـا ,وهـذه الفكـرة مفادهـا أن العناصـر الـتي تتـألف منهـا معرفتنـا كلهـا هـي المـدركات البسـيطة الـتي تتلقاهـا عقولنـا وتشـتغل بهـا دون أن يكـون لهـذه العقـول أي أثـر فيهـا[2]، إذ يتفـق هيـوم هنـا مـع لـوك وينفـي أي دور للعقـل و يأكـد علـى أنـه لاوجـود لأي أفكـار فطريـة عقليـة في العقـل بـل الموجـود هـو التجربـة ومـا تتركـه مـن أثـر علـى العقـل فهـو مجـرد مسـتقبل لمـا تمليـه الحـواس عليـه، فهـو عـاجز وقاصـر عـن بلـوغ الحقيقـة مـن دون هـذه الرسـائل الحسـية القادمـة مـن الحـواس الخمسـة، فالحقيقـة يـتم الوصـول إليهـا مـن خـلال المبـدأ الحسـي الخالي من كل إضافة حسية حسب هيوم.

كمـا أننـا نلاحـظ التـأثر الكبـير لهيـوم بلـوك حـتى في مؤلفاتـه حيـث نجـد أن أول كتـاب لدفيـد هيـوم كـان بعنـوان:" مقالـة في الفهـم البشـري" وهـو العنـوان الـذي اقتبسـه مـن عنـد جـون لـوك وكتابـه:" مقالـة في العقـل البشـري" ولا يـبرز تـأثر هيـوم بلـوك في عنـوان الكتـاب فقـط بـل حـتى في محتـوى الكتـاب خاصـة في مـا يتعلـق بنظريـة المعرفـة لكـل منهمـا ونقـدهما للأفكـار الفطريـة الموجـودة في العقـل الـتي دعـا إليهـا العقليـون بالإضـافة إلى تأكيـدهما علـى أن المصـدر الوحيـد للمعرفـة والحقيقـة هـو التجربـة وكـل مـا في هـذا العـالم خاضع للتجربة بما في ذلك العقل نفسه

ثانيـا: جـورج بـاركلي*: (**1753–1685**)يعتـبر بـاركلي رمـز مـن رمـوز المدرسـة التجريبيـة الإنجليزيـة كمـا يعتـبر شخصـية انتقاليـة كونـه توسـط المرحلـة الـتي تميـزت بسـيادة العقـل مـع ديكـارت وبـين المرحلـة الـتي

[1] نقلا عن:زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة, ص201- 204

[2] المرجع نفسه, ص 234

* فيلسـوف ارلنـدي مـن أسـرة انجليزيـة كـان أسـتاذ للغـة اليونانيـة والعبريـة وهلـم اللاهـوت مـن مؤلفاتـه "رسـالة في مبـادئ المعرفـة البشـرية" أقـام نظامـا فلسـفيا في سـن مبكـر انطلـق مـن مقدمـة تقـول "إن الإنسـان لا يـدرك شـيئا بطريقـة مباسـرة سـوى أفكـاره" فقـد اسـتنتج أن الأشـياء لا توجـد إلا في المـدى الـذي يمكـن فيـه أن تـدرك، ومـن هنـا أطلـق مقولتـه الشـهير "وجـود الشـيء إدراكـه" (كميـل الحـاج، الموسـوعة الميسـرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص102)

شـهدت ولـوج الإتجـاه الحسـي ابتـداء مـع لـوك وانتقـالا إلى هيـوم، عـرف بتبكـيره العقلـي حيـث انتهـى مـن تحديـد موقفـه الفلسـفي عنـدما كـان مـازال يافعـا[1]، وهـذه ربمـا مـن أهـم النقـاط الـتي تشـابه فيهـا هيـوم ببـاركلي ومنـه نطـرح التسـاؤل التـالي : إذا كـان هيـوم قـد تـأثر بلـوك في الجانـب المعـرفي وأصـل الأفكـار، فـأين تجلـى تأثير جورج باركلي في دفيد هيوم؟

إن أهـم النقـاط الـتي تؤكـد علـى التـأثير الواضـح لبـاركلي في هيـوم تتجلـى في أن هيـوم قـد وصـل بفلسـفة بـاركلي إلى نتيجتهـا المنطقيـة والـتي هـي الشـك ,فالشـك هـو الخاتمـة الـذي انتهـى اليهـا المـذهب التجـريبي الـذي قـام في إنجلـترا والـذي غـدى موقفـا محـيرا في ظـل اكتشـافات ذلـك العصـر العلمـي مـن خـلال التوصـل إلى قـوانين الطبيعيـة الضـرورية الـتي جعلـت العـالم يخضـع لقـوانين علميـة ضـرورية في المـادة والحركـة كقـوانين غـاليليو ونيـوتن وغيرهمـا[2],حيـث يعتـبر هيـوم بحـق فيلسـوف الشـك بحـق فهـو اكثـر الفلاسـفة التجريبيين شكا على الإطلاق.

حيـث يسـلم هيـوم بمـا قالـه بـاركلي:" أن الأشـياء الماديـة الخارجيـة، مـا دامـت صـفاتها مـن خلـق عقولنـا فهـي مجـرد وهـم وخرافـة" وهنـا يظهـر تـأثر هيـوم ببـاركلي حيـث وافقـه في إنكـار العـالم المـادي إلا أنـه زاد عليـه بـأن العقـل أيضـا غـير موجـود فهـو مجـرد وهـم ,فـلا مـادة هنـاك ولا عقـل والموجـود الوحيـد هـو التجربـة كمصـدر وحيـد للعـالم، فطالمـا أن أفكارنـا مصـدرها التجربـة فـلا مـادة هنـاك لأن صـفاتها مـن خلـق عقولنـا، و لاعقـل هنـاك كـذلك لأن العقـل كـذلك لا يفـرق سـوى بـين مجموعـة مـن الإدراكـات الحسـية المترابطـة بقـوة الخيـال فقـط[3]، ومـن خـلال هـذه الفكـرة نصـل إلى تـأثر آخـر لهيـوم ببـاركلي ألا وهـي فكـرة "التصـورية" فمـذهب هيـوم يرجـع إلى نقطتـين رئيسـيتين الا وهمـا: الحسـية و التصـورية كمـذهب بـاركلي, إذ يأكـد هيـوم علـى أن الشـيء لا يحفـر في الـذهن إلا أن يكـون صـورة أو إدراكـا وبطبيعـة الحـال علـى مـا يقضـي بـه المبـدأ التصـوري، وفي هـذه العبـارة إشـارة وتأكيـد صـريح علـى عـدم إعـتراف هيـوم بكـل مـا هـو

[1] ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة، تر احمد محمود، مكتبة الاسرة، برعاية سوزان مبارك، ص ص 265، 266

[2] ايوب ابو دية، العلم والفلسفة الاوروبية الحديثة، ص229

[3] نقلا عن: المرجع نفسه، ص233

مـادي مثلـه مثـل بـاركلي إلا أنـه أكثـر دقـة وتطبيقـا للمبـدأين الحسـي والتصـوري ،واكثـر جـرأة في مواجهـة النتائج الشكية حتى أعلن الشك صراحة[1].

كمـا أن هيـوم لا يعـترف بتاتـا بالمعـاني المجـردة ويرفضـها رفضـا قاطعـا ويصـطنع الإسميـة مثـل بـاركلي فيتحـدث نفـس حديثـه ويسـوق نفـس الأمثلـة، فـلا قيمـة لمـا بعـد الطبيعـة ولا قيمـة لمـا لا تلتقطـه الحـواس، فـلا يوجـد في الـذهن معـان مجـردة وجميـع معارفنـا جزئيـة وكـل مـا هنالـك إن إسمـا بعينـه ينطبـق علـى جزئيـات عـدة وهنـا يعطينـا هيـوم مثـالا فيقـول:" إسـم فـرس يطلـق عـادة علـى أفـراد مختلفـة اللـون و الشـكل والمقـدار فبمناسـبته تتـذكر هـذه المعـاني أو الأفـراد بسـهولة"[2]، فهيـوم بهـذا المثـال أراد أن يؤكـد علـى أن معانينـا الكليـة جميعـا هـي في الحقيقـة معـان جزئيـة مرتبطـة باسـم كلـي يـذكر اتفاقـا بمعـان أخـرى جزئيـة في الـذهن وفقـط فكـل المعـاني تـرتبط باسـم كلـي يمكـن مـن خلالـه إدراكهـا وتصـنيفها، ومـن خـلال هـذا الاسـم الكلـي أيضـا يمكـن الشـعور بهـذه المعـاني فتنقشـع بـذلك صـفة التجريـد عـن هـذه الأسمـاء وتصـبح أعـراض حسـية قابلـة للإدراك بعيدا عن كل تجريب نسبي غير معين.

ومـن خـلال مـا سـبق يتضـح لنـا التـأثير الكبـير لجـون لـوك وجـورج بـاركلي في فكـر دفيـد هيـوم خاصـة في البـدايات الأولى مـن فلسـفته ،بـل يمكـن اعتبـار فلسـفة وأفكـار كـل مـن لـوك وبـاركلي بمثابـة القاعـدة الصـلبة الـتي انطلـق منهـا هيـوم في بنـاء فكـره الفلسـفي التجـريبي ويبقـى السـؤال هنـا : هـل بقـي هيـوم محافظـا علـى نفـس خطـوات فلسـفة كـل مـن لـوك وبـاركلي؟ أم انطلـق منهـا وأسـس لفكـر فلسـفي مختلف عنها؟

[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص173

[2] نقلا عن: المرجع نفسه، ص 174

المبحث الثالث: الظاهرة الدينية

بعد أن تناولنا في المبحثين السابقين نبذة عن حياة هيوم و نظريته المعرفية بالإضافة إلى خلفيته الفكرية المستوحاة من جون لوك وجورج باركلي، سنتناول بالدراسة في هذا المبحث الجانب الديني بصفة عامة في محاولة لفهم الأصول الأولى للدين وأهم محطات تطوره بصفة خاصة بالإضافة إلى أهم آراء الفلاسفة حول مشكلة أصل الدين وكيف فسروه ومن أجل الوقوف على كل هذا نطرح التساؤلات التالية وهي كتالي:

ماهي الأسباب التي أدت إلى نشأة الدين؟

ما هي تلك الظروف التي ساهمت في تشكيله؟

فيم تتمثل المراحل التي مر بها؟

وهل النظرة التي هو عليها الدين هي نفسها قديما؟

المطلب الأول: مفهوم الدين: يعتبر مفهوم الدين من أكثر المفاهيم التي لا تلقى الإجماع في الوسط الفلسفي والفكري عامة، وبهذا سنعمل على محاولة تقريب هذا المفهوم من خلال المفهوم اللغوي والاصطلاحي:

أ–لغة:

ننطلق أولا من تعريف الدين عند بعض الفلاسفة إذ يعرفه الرازي لغويا فيقول : "الدين بالكسر العادة والشأن ودانه يدينه، دينيا بالكسر أذله واستعبده فدان، وفي الحديث:" الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت" والدين أيضا الجزاء و المكافأة: يقال دان نفسه دينا أي جازاه، يقال كما تدين تدان أي كما تجازي تجازى بفعلك، وبحسب ما عملت ويقال أيضا دان بكذا ديانة فهو دين ودينه وتدينا : وكله دينه"[1]

[1] نقلا عن: محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، ص11

ومـن هـذا التعريـف اللغـوي الـذي يقدمـه الـرازي يكشـف أن هنـاك ثلاثـة مـدلولات لغويـة للـدين، أولهـا الـدين بمعـنى العـادة، وربمـا اعتـبر الـدين عـادة لأن النـاس غالبـا لا يعيشـون بـدون ديـن فالـدين عـادة إنسـانية و الإنسـان ضـعيف لابـد أن يجـد لمـن يلجـأ إليـه ويقـوي بـه ضـعفه، أمـا الدلالـة الثانيـة فالـدين يعـني كـذلك تعبـير عـن الحـال والشـأن، أمـا الدلالـة الثالثـة فالـدين يعـني الخضـوع أي إعـتراف الإنسـان بوجـود قـوة عليا تتحكم في مصيره ويجب عليه اطاعتها وإرضائها بالطاعة و العبادة[1].

ويـرى لالانـد أن اشـتقاق كلمـة ديـن Religion أمـر مجـادل فيـه، ويتخـرج معظـم القـدماء أمثـال لاكنـانس وأوغسـطين وسـيرقيوس، الـدين Religion مـن Religare ويـرون فيـه فكـرة الـربط: سـواء الـربط الواجـب تجـاه بعـض الممارسـات، وإنـه الـربط الجـامع بـين النـاس مـن جهـة أو بـين البشـر والآلهـة مـن جهة ثانية، ويشتق سيشرون الكلمة من Relire بمعنى تجديد الرؤية بدقة[2].

وبنحـو عـام تبـدو كلمـة Religion أنهـا تعـني في اللاتينيـة الإحسـاس المصـحوب بخـوف وتأنيـب ضـمير، بواجـب مـا تجـاه الآلهـة، ولم يكـن لـدى القـدماء سـوى كلمـة Religions أي ديانـات وعنـد لـوكريس تعـني كلمـة religie المفـردة دينـا مـا، أي الـدين بوجـه عـام وهـذا التعمـيم فيـه إشـارة إلى الاعتقاد بأي خارق إعجازي[3].

هـذا مـن الناحيـة اللغويـة إذ يتبـين مـن هـذه التعريفـات أن هنـاك اخـتلاف في اشـتقاق كلمـة الـدين فهنـاك اخـتلاف مـن حقبـة لحقبـة ومـن مكـان إلى مكـان آخـر، فـإذا كانـت هـذه الكلمـة تعـني في اللغـة العربيـة العـادة الـتي تعـود عليهـا مجموعـة معينـة مـن النـاس فإنهـا في اللغـة اللاتينيـة تعـني الإحسـاس المصـحوب بالخوف وهذا ما نجده في الدين المسيحي.

ب–إصطلاحا:

وبعـد أن عرفنـا الـدين مـن الناحيـة اللغويـة سـنحاول هنـا أن نقـدم مفهـوم للـدين مـن الناحيـة الاصـطلاحية، وكـون أن الـدين قـد يعـرف حسـب المجـال الـذي يـذكر فيـه فقـد يختلـف تعريـف الفيلسـوف

[1] المرجع السابق، ص ص 11، 12.

[2] اندري لالاند الموسوعة الفلسفية، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت لبنان ,19، , ص1203

[3] المرجع نفسه، ص1204

للدين عن تعرف الفقيه كما قد يختلف أيضا عن عالم الإجتماع أو عالم النفس، ولهذا وجب علينا أن نقدم مفهوم للدين في عدة مجالات معرفية منها : الفلسفة وعلم الإجتماع وعلم النفس من أجل الوقوف على حقيقة الدين في بعض المجالات والحقول المعرفية المتنوعة.

1/ الدين عند الفلاسفة: يتعدد التعريف الفلسفي بتعدد الفلاسفة إذ لا يوجد إتفاق بين الفلاسفة على تحديد ماهية الدين حيث نأخذ أهمها فقط:

- نبدأ بأندري لالاند: حيث قدم ثلاث تعريفات مختلفة للدين هي:

أولا: الدين مؤسسة اجتماعية متميزة بوجود مجموعة من الأفراد المتحدين بأداء بعض العبادات المنظمة وباعتماد بعض الصيغ, هذا التعريف نلمس فيه الجانب الإجتماعي للدين ما دام أساسه قائم على اتحاد الأفراد بنظام الجماعة.

ثانيا: الدين نسق فردي لمشاعر و اعتقادات وأفعال مألوفة موضوعها الله[1] وفي هذا التعريف إشارة إلى قيام الدين على مجموعة من الواجبات والأفعال لكي يكون الإنسان متدينا يجب عليه أداء هذه الواجبات الدينية مثل: العبادة من خلال الصلاة، فالدين ذو طابع إلزامي. ثالثا: الاحترام الضميرية لقاعدة أو لعبادة أو لشعور[2] أما من خلال هذا التعريف ففيه تأكيد على حرية الفرد من خلال الاحتكام لضميره ولكن مع ضرورة احترام الجانب الأخلاقي الذي يجب أن يكون حاضرا مع الدين، فالدين مبني على قانون أخلاقي.

- أما كانط فيعرف الدين على أنه معرفة الواجبات كلها باعتبارها أوامر إلاهية[3] بمعنى أن الدين الكانطي هنا هو التزام أخلاقي في تجاه الله ويجب معرفة هذا الالتزام و التفاني في القيام به وكأن الالتزام يكون من خلال العقل لأنه يعتبر مقياس الإيمان الديني.

---

[1] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[2] المرجع نفسه، ص1206

[3] نقلا عن: محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، ص18

- أما هيجل فيرى أن الدين هو الروح واعيا جوهره، وهو ارتفاع الروح من المتناهي إلى اللامتناهي[1]، ومن هذا التعريف الهيجلي للدين نستخلص أنه عملية بحث للمتناهي الذي هو الإنسان عن اللامتناهي وهو الله فالدين إذن هو : بحث الإنسان عن المطلق.
- أما ويليام جيمس فيقول أن الدين هو مجموعة الأحاسيس و الخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم وما تعود إليه من تصرفات، وتتعلق هذه الأحاسيس والخبرات بنوع من العلاقة، يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعتبره إلاهيا، ويعني هنا ويليام جيمس أن الدين عبارة عن أحاسيس وخبرات للأفراد التي تشكل العلاقة بين الفرد و الإله ومن هذا التعريف نلمس الجانب النفسي في الدين.
- أما ماكس مولر الفيلسوف ومؤرخ الأديان الألماني فيعرف الدين بأنه كدح من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، إنه توق إلى اللانهائي[2]، بمعنى أن الدين أمر غير عادي إذ يتجاوز حدود المعارف الإنسانية ويقع في نطاق السر و المجهول الذي عبر عنه باللانهائي الذي يجب على الإنسان البحث عنه و الوصول إليه عن طريق التفكير والعقل العملي.
- يقول شلاير ماخر وهو لاهوتي ودارس أديان أن الدين هو شعور باللانهائي و اختبارا له[3]، بمعنى أن الوصول إلى اللانهائي يكون عن طريق المشاعر الداخلية, حيث ان هذه الاخيرة تبعث في الإنسان حب البحث والتأمل والاكتشاف وتجعله يصل إلى فكرة الله.

2/ الدين عند علماء الإجتماع:

يرى دوركايم أن تعريف الدين يجب أن ينطبق على جميع الديانات من أكثرها بدائية إلى أكثرها تطور وتعقيدا وذلك يكون بالبحث عما هو مشترك بين الديانات جميعا[4]، فيقول الدين مؤسسة اجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس ولها جانبان أحدهما روحي مؤلف من العقائد و المشاعر

[1] نقلا عن: المرجع السابق، ص18.

[2] فراس السواح, دين الإنسان-بحث في ماهية الدين ونشا الدوافع الإنسانية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع, ط4, 2002,ص22

[3] المرجع نفسه، ص 24

[4] المرجع نفسه، ص26

الوجدانيـة، والآخـر مـادي مؤلـف مـن الطقـوس و العـادات[1]، بمعـنى أن دوركـايم بهـذا التعريـف قسـم العـالم إلى قسـمين يحتـوي الواحـد منهمـا علـى كـل مـا هـو مقـدس و الآخـر علـى كـل مـا هـو دنيـوي ,كمـا أن الـدين مـن خـلال هـذا التعريـف يظهـر جليـا علـى أنـه ظـاهرة إجتماعيـة قائمـة علـى منظومـة نسـق مترابطـة من العقائد و القيم الأخلاقية تقوم بها جماعة من الناس مؤمنين بهذه القيم ومتحدين فيما بينهم.

ولقـد أصـبح هـذا التعريـف الـذي قدمـه دوركـايم للـدين الأكثـر شـيوعا في علـم الإجتمـاع الـديني حيـث ظهـر في قـاموس أكسـفورد لعلـم الإجتمـاع لكـن مـع بعـض التفصـيل، إذ تم التعريـف علـى أنـه: مجموعـة مـن المعتقـدات و الرمـوز والممارسـات الـتي تتضـمن علـى فكـرة المقـدس، والـتي توحـد بـين المـؤمنين بهـذه المعتقـدات في مجتمـع ديـني إجتمـاعي[2]وهنـا نلاحـظ الـربط الواضـح بـين الـدين وكلمـة مقـدس وهـذا دليـل على قدسية الدين.

3/ الدين في اصطلاح علماء النفس:

توجـد تعريفـات مختلفـة للـدين في علـم الـنفس وتختلـف هـذه التعريفـات بـاختلاف المـدارس النفسـية الـتي تـدرس كـل منهـا الـدين مـن زاويـة نفسـية معينـة ومـن أشـهر التعريفـات النفسـية للـدين, تعريـف إيـرك فـروم إذ يعـرف الـدين بأنـه: أي مـذهب للفكـر و العمـل تشـترك فيـه جماعـة مـا، ويعطـي للفـرد إطـار للتوجيـه وموضـوعا للعبـادة[3]، بمعـنى أن فـروم هنـا يقـدم تعريـف عـام للـدين إذ يعتـبره موجـه الفـرد مـن خـلال العبـادة الـتي تشـترك فيهـا جماعـة مـا، إذ أنـه مـزج بـين الفكـر و العمـل متحـدين في توحيـد وعبـادة إلاه واحـد والـدين عبارة عن نسق فكري سيكولوجي يجمع بين الفكر و التطبيق بين جماعة من الناس.

أمـا سـيغموند فرويـد فـيرى ان الـدين ينبـع مـن عجـز الإنسـان عـن مواجهـة الطبيعـة في الخـارج والقـوى الغريزيـة داخـل نفسـه، وينشـأ الـدين في مرحلـة مبكـرة مـن تطـور الإنسـاني عنـدما لم يكـن الإنسـان يسـتطيع اسـتخدام عقلـه في التصـدي لهـذه القـوى الخارجيـة، ولا يجـد مفـر مـن كبتهـا أو التحايـل عليهـا

[1] المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص57

[2] محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، ص15

[3] المرجع نفسه، ص17

مستعينا بقوى عاطفية أخرى[1]، ويشبه فرويد ظروف نشأة الدين بتلك الظروف المشابهة التي تنتج عصاب الطفولة[2]، إذ أن طفل يجعل من أبيه رمزا للأمن و الحماية فكذلك الإنسان الأول عندما كان يشعر بالخوف وعدم الأمان لجأ إلى كائن أعلى وأقوى وأسمى منه من أجل أن يحتمي به ويتوسل إليه ويجعله رمزا للطمأنينة و الأمن[3]، فالدين حسب فرويد نتيجة لعدم قدرة الفرد على حماية نفسه وتأمينها، فيلجأ إلى الدين اي إلى إله يحميه.

أما يونغ تلميذ فرويد فيعتبر الدين اتجاه خاص للعقل وهو وجود ينامي الخضوع لقوى أعلى من أنفسنا مثل الأرواح والشياطين والقوانين والآلهة ....[4]، ومعنى هذا أن الدين قائم على الملاحظة الدقيقة للوجود الدينامي الخارق الذي يتحكم في الذات الإنسانية والخضوع لهذه القوة الأعلى والأقوى من أي نفس بشرية.

إن دراسة الأديان أو العقائد و العشائر الدينية أو التطرق إليها في أي بحث من البحوث من شأنه أن يكشف طبائع الشعوب والأمم والحضارات، فإذا كان أرسطو قد عرف الإنسان على أنه حيوان ناطق، أي مفكر فقد عرفه غيره من الفلاسفة بأنه حيوان متدين، وهذا ما يؤكد أهمية الدين و اهمية دراسته من طرف مختلف الباحثين في شتى العلوم، ولهذا سنحاول الإقتراب أكثر من موضوع الدين بالدراسة من خلال العودة إلى تاريخ الأمم والحضارات من أجل سبر اغوارا الدين منذ أن نزل الإنسان على الأرض، فيا ترى كيف ظهر الدين وما مدى أهميته بنسبة إلى الإنسان؟

المطلب الثاني: النظريات المفسرة للدين

توجد نظريات متعددة تحاول تفسير حركة ارتقاء الوعي الديني عند الإنسان، وتسعى لاكتشاف المنطق الذي يحرك سير الأديان عبر التاريخ ويمكن تصنيفها في طائفتين من النظريات:

---

[1] إيريك فروم، الدين والتحليل النفسي، تر فؤاد كامل، مكتبة غريب، 2003 ،ص15

[2] محمد عبد الفتاح المهدي، سيكولوجية الدين والتدين، فجر الإسلام، الاسكندرية، ط1، 2002، ص14

[3] إيريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ص17

[4] محمد عبد الفتاح المهدي، سيكولوجيا الدين والتدين، ص14

الطائفة الأولى: النظريات التطورية:

تـذهب إلى أن شـأن الإنسـان مـع الـدين شـأنه مـع مظـاهر الحضـارة الأخـرى مـن فـن وعلـم وفلسـفة، فـإذا كانـت حركـة الحضـارة الإنسـانية عامـة هـي حركـة تطـور وارتقـاء، فـإن الـدين بوصـفه نشـاطا إنسـانيا فقـد مـر بمختلـف مراحـل التطـور والإرتقـاء مـن أدنى إلى أعلـى[1]، بمعـنى أن الـدين ظـاهرة كبـاقي الظـواهر الـتي ميـزت الجماعـات البشـرية منـذ القـديم ,ومثـالا علـى ذلـك فـإن أول مـا انفـرد بـه الإنسـان عـن غـيره مـن الكائنـات هـو تشـكيل الأدوات الحجريـة بواسـطة تقنيـة الشـطف وإلى جانـب أدواتـه هـذه تـرك لنـا الإنسـان القـديم شـواهد علـى وسـطه الفكـري و الـتي تشـير إلى بـوادر دينـه لا لـبس فيهـا، ليتبـين ظهـور الـدين إلى جانـب التكنولوجيـا كمؤشـرين أساسـين علـى ابتـداء الحضـارة الإنسـانية[2]، وبالتـالي فـإن هـاتين الخاصـيتين الرئيسـيتين للإنسـان هـي نقطـة انطـلاق لكـل ارتقـاء سـواءا كـان هـذا الإرتقـاء مـادي تكنولـوجي أو إرتقـاء فكـري روحـي، لـذا فـإن تلـك الأدوات الحجريـة الأولى الخاصـة بالإنسـان البـدائي تعتـبر نقطـة بدايـة لتشـكيل أو لإنتـاج وسـائل شـطف جديـدة هـذا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى فـإن سـائر الأفكـار الروحيـة والدينيـة الـتي تمتـاز بصـفة التجديـد والحداثـة مـاهي إلا نتيجـة حتميـة للفكـر الروحـي الـديني الأول الـذي خلفـه الإنسـان البـدائي الـذي إهتـدى إلى الـدين وحـاول تطـويره، لنقـول أن أي فكـر أو أي إنتـاج إنما هو إستكمال لفكر أو إنتاج أسبق منه ضمن سلسلة التطور الحتمي وفقا لقانون البشرية العام.

الطائفة الثانية: النظريات الاعتقادية:

وهـي تلـك الطائفـة الـتي تأخـذ بوجهـة نظـر الكتـب المقدسـة في تفسـير نشـأة الاعتقـاد الـديني، والـتي تأكـد أن البشـرية أول مـا بـدأت بـه هـو توحيـد، الـذي تكشـف لهـا إمـا بتأمـل النظـري أو بـوحي إلاهـي والـذي لم يكـن الشـرك إلى مظهـرا مـن مظـاهر فسـاده ومـن الفلاسـفة الـذين أخـذوا بهـذه الوجهـة نجـد بلييـز باسـكال[3]، وهـذا مـا أثبتـه القـرآن الكـريم أي أن الله خلـق النـاس موحـدين مخلصـين لـه الـدين، وفطـرهم علـى التوحيـد، ولم تخـل أمـة علـى طـول التـاريخ البشـري مـن ديـن ورسـل, الـذين يـدعون إلى التوحيـد

[1] محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، ص159

[2] فراس السواح، دين الإنسان، ص18

[3] محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، ص160

ويحذرون من الشرك[1]، حيث يقول سبحانه وتعالى: {**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**}[2].

وبعد ذكرنا للنظريات التي تحاول تفسير تطور الدين عند الإنسان سنحاول أن نذكر أهم محطاته مع ذكر بعض النماذج عن الديانات القديمة من أجل توضيح فكرة الدين أكثر، في البداية يجب أن نفرق في الدين بين ما هو سماوي وغير السماوي, إذ أن منطلق الأديان السماوية هو اعتبار الله كأصل للخلق والوجود كله في حين أن الأديان غير السماوية تعترف بوجود إله أعظم الخالق والمدبر للكون ولكن ليس وحده بل بين العديد من الآلهة[3]، ولهذا ففي البداية بعد أن نزل الإنسان إلى الأرض ظهرت ديانات عديدة فكانت الأساطير والخرافات والسحر والشعوذة ومحاولة السيطرة على القوى الخفية والتقرب إليها بالأضاحي والقرابين مما يزخر به تاريخ الشرق والغرب على حد سواء[4]، فنجد مثلا الديانة الطاوية والديانة الرومانية والديانة المصرية والديانة الهندية وغيرها , فيها بعض الاتفاق وفيها الكثير من الاختلاف ,وما يمكن قوله عن الديانات الشرقية أنها تميزت بالطابع العملي في حين أن الديانات الغربية مثل الرومانية واليونانية فتميزت بالمثالية المتعالية إلا أن هذا لا يعني اختلاف هذه الأديان فهناك العديد من نقاط الاشتراك بين هذه الديانات ومن بين هذه النقاط طبعا هو اتخاذ آلهة للعبادة فهذه الفكرة اهتدى إليها معتنقوا هذه الديانات مخالفين بذلك أولئك الذين لا إلاه لهم ولا مرجعية دينية تجمعهم، ولهذا فإن هذه الديانات وإن اختلفت في الإله المعبود إلا أنها تعتبر سلسلة مترابطة تظم مجموعة من المعتقدات تجمعهم علاقة تأثر وتأثير، ويكفي القول أن هذه الديانات تعتبر مرحلة مهمة للإنسان وربما ما كان قد اهتدى إلى فكرة الإله إطلاقا دون هذه الديانات .

---

[1] ناصر ابن عبد القفاري وناصر ابن عبد الكريم العقل، الموجز في الاديان والمذاهب المعاصرة، دار الصميغي للنشر والتوزيع، ط1 ,1992، ص16

[2] سورة فاطر، الآية 24

[3] هدى بوفضة، دور الدين في بناء الحضارة أرلوند توينبي، مذكرة تخرج، رسالة ماجستير فلسفة، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، قسم الفلسفة، قسنطينة، 2007، 2008، ص60

[4] المرجع نفسه، ص55

ولـذا يجـب القـول أن هـذه الأديـان ورغـم تعـددها واختلافهـا واخـتلاف معتقـداتها إلا أنـا تجتمـع علـى مسـتوى الأخـلاق الإنسـانية العامـة، كونهـا تـدعوا إلى أنبـل الأخـلاق الإنسـانية ووضـعها في الحيـاة موضـع التطبيـق[1] فمـثلا فـنحن نجـد أنـه في معظـم الأديـان أن السـلام ممـدوح والحـرب مذمومـة وهكـذا هـي الامور في باقي الامور الاخلاقية كنقطة اتفاق تجمع بين الانسانية جمعاء.

المطلب الثالث: أهم الديانات

ولا يمكـن الحـديث عـن الـدين دون التعـريج علـى أهـم الـديانات و العقائـد الـتي عرفتهـا البشـرية واهتـدت بهـا في غياهـب الحيـاة ومـن بـين هـذه الـديانات طبعـا: الديانـة اليهوديـة والديانـة المسـيحية و الديانـة الإسـلامية ومـا يمكـن القـول عـن هـذه الـديانات الثلاثـة أنهـا أهـم الـديانات الـتي عرفتهـا البشـرية واهتـدت بهـا لا لشـيء سـوى لتطـابق فكرهـا مـع الواقـع وكونهـا تعتـبر الأقـرب تصـديقا إلى العقـل ،بالإضـافة إلى منطقيتهـا لـذا نجـدها اليـوم تحتـل مكانـة كبـيرة في الإنسـانية بـل تعتـبر الـديانات الوحيـدة الـتي تمتلـك نسـب كبـيرة مـن حيـث الإقبـال خاصـة الديانـة الإسـلامية لا لشـيء سـوى لأنـه امتـداد للمسـيحية وجـاء لتصـحيح بعـض الأغـاليط الـتي وقعـت فيهـا المسـيحية، بالإضـافة الى امتلاكهـا لأهـم صـفة كونهـا مصـونة ومحفوظـة مـن التحريـف كمـا يعتـبر الـدين الخـاتم وأهـم مبـدأ تتأسـس عليـه العقيـدة الإسـلامية هـو التوحيـد أي إفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له.

أولا: اليهوديـة: هـي الملـة الـتي يـدين بهـا اليهـود وهـم أمـة موسـى عليـه السـلام، كانـت في اصـلها قبـل أن يحرفهـا اليهـود: هـي الديانـة المنزلـة مـن الله تعـالى علـى موسـى عليـه السـلام، وكتابهـا التـوراة، وهـي الآن ديانـة باطلة لأن اليهود حرفوها.

أصل التسمية:

سـبب تسـميتها يعـود ليهـوذا ابـن يعقـوب الـذي ينتمـي إليـه بنـوا إسـرائيل الـذين بعـث نبـيهم موسـى عليـه السلام، فقلبت العرب الذال دالاً.

[1] نقلا عن: المرجع السابق، ص61

وقيل نسبة إلى الهود وهو التوبة والرجوع وذلك نسبة إلى قول موسى عليه السلام لربه: "إنا هدنا إليك"، أي تبنا ورجعنا إليك.

أما فيما يخص عقيدتهم فقد كانت عقيدة التوحيد قبل أن يحرفوها ,المنزلة من الله على موسى عليه السلام، لكنهم حرفوها وابتدعوا فيها ما لم ينزل الله، حتى صاروا فيما بعد وحتى الآن على الشرك والعداء لله وللرسول.[1]

ثانيا: المسيحية (النصرانية):

تعريفها وأصلها: تطلق النصرانية على الدين المنزل من الله تعالى على عيسى عليه السلام وكتابها الإنجيل.

وأتباعها يقال لهم النصارى نسبة إلى بلدة الناصرة في فلسطين وهي التي ولد فيها المسيح، أو إشارة إلى صفة نصرهم لعيسى عليه السلام وتناصرهم فيما بينهم.

أما أصلها فالنصرانية دين منزل من الله على عيسى عليه السلام ولكنها غيرت وحرفت نصوصها وتعددت أناجيلها وتحول أتباعها من التوحيد إلى الشرك فأصبحت باطلة.

تعتبر النصرانية امتدادا لليهودية لأن عيسى عليه السلام أرسل إلى بني إسرائيل مجددا في شريعة موسى عيله السلام ومصححا لما حرفه اليهود فالديانة النصرانية مكملة للديانة اليهودية[2].

ثالثا: الإسلام:

لغة: يقال سلّم بمعنى إنقاد ورضى بالحكم، وسلم على قوم أي حياهم بالسلام، وسلم أمره لله أي أسلمه إليه سبحانه، والسلام الأمن والصلح، والسلام إسم من أسماء الله الحسنى، وقد سميت الجنة دار السلام لأنها دار السلام الأبدي.

[1] ناصر القفاري وناصر العقل، الموجز في الأديان، ص ص 20، 21

[2] المرجع السابق، ص ص65، 66

إصـطلاحا: الخضـوع لله والعـيش وفـق منهجـه، وبـذلك يكـون كـل مسـلم هـو كـل مـن أسـلم قلبـه ووجهـه إلى الله[1] .

ومـا يجـب التأكيـد عليـه أن الإسـلام هـو ديـن الأنبيـاء والمرسـلين جميعـا فالإسـلام الـذي دعـا إليـه محمـد رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم في مطلـع القـرن السـابع مـيلادي دينـا جديـدا ،وإنمـا كـان تجديـدا لـدين الله الحـق الإلـه الواحـد ذي الـدين الواحـد ولكـن الـديانات الأخـرى قـد تعرضـت للتحريـف والتشـويه مـن طـرف بعض البشر[2] .

ومـن الـدلائل علـى صـدق هـذا الـرأي نأخـذ بعـض الآيـات مـن القـرآن الكـريم كإثبـات فقـد خاطـب الله نبيـه محمـد في القـرآن بقولـه:" **قُـلْ إِنَّنِـي هَـدَانِي رَبِّـي إِلَـىٰ صِـرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ دِينًـا قِيَمًـا مِّلَّـةَ إِبْـرَاهِيمَ حَنِيفًـا وَمَـا كَـانَ مِـنَ الْمُشْـرِكِينَ**" ، وفي هـذه الآيـة إثبـات علـى أن ديـن سـيدنا إبـراهيم هـو عكـس الشـرك ألا وهـو الإسـلام وهـو ديـن الانبيـاء والمرسـلين جميعـا فلقـد كـان نـوح أبـو البشـرية مسـلما إذ قـال لقومـه: {**فَـإِن تَـوَلَّيْتُمْ فَمَـا سَـأَلْتُكُم مِّـنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلَّا عَلَـى اللَّـهِ وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُـونَ مِـنَ الْمُسْلِمِينَ**}[3].

وكـذلك كـان سـيدنا إبـراهيم وأبنـاؤه قـد تواصـوا وذريـتهم أن يكونـوا علـى الإسـلام فنجـد في القـرآن الكـريم قولـه تعـالى:{**إِذْ قَـالَ لَـهُ رَبُّـهُ أَسْـلِمْ قَـالَ أَسْـلَمْتُ لِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ {131} وَوَصَّـىٰ بِهَـا إِبْـرَاهِيمُ بَنِيـهِ وَيَعْقُـوبُ يَـا بَنِـيَّ إِنَّ اللَّـهَ اصْـطَفَىٰ لَكُـمُ الـدِّينَ فَـلَا تَمُـوتُنَّ إِلَّا وَأَنـتُم مُّسْـلِمُونَ{131} أَمْ كُنـتُمْ شُـهَدَاءَ إِذْ حَضَـرَ يَعْقُـوبَ الْمَـوْتُ إِذْ قَـالَ لِبَنِيـهِ مَـا تَعْبُـدُونَ مِـن بَعْـدِي قَـالُوا نَعْبُـدُ إِلَٰهَـكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِـكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**}[4]

---

[1] لواء أحمد عبد الوهاب، الإسلام والأديان "نقاط تشابه واختلاف"مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة،ص11

[2] سورة الأنعام، الآية 161

[3] سورة يونس، الآية 71، 72

[4] سورة البقرة، الآية 130، 133

أما بنو إسرائيل فقد آمنوا بالله حقا وبنبيه موسى وكانوا مسلمين فنجد في قوله تعالى: {**وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**"}[1].

كما أن أنبياء بنوا إسرائيل كانوا مسلمين ويدعون إلى الإسلام إذ نجد حواريو المسيح وتلاميذه مسلمين: {**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**}[2]

ولهذا كان الإسلام هو دين الحق وهو الدين الجامع لكل البشرية ولهذا كان قول الله تعالى في القرآن الكريم: {**إن الدين عند الله الإسلام**}[3]، {**ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**}[4].

المطلب الرابع: الدين في العصر الحديث

أما الدين في العصر الحديث لم يكن قابلا للدراسة والبحث إلا بعد إصلاحات مارتن لوثر، فإصلاحات هذا الأخير تعتبر بمثابة الإرهاصات الأولى لتشكيل فلسفة الدين، تقوم على الإيمان بقدرات العقل الإنساني في فهم وتفسير المعتقد الديني، فلقد كان لوثر قد فصل بين الدين والفلسفة لأن ملكة المعرفة في اللاهوت هي الإيمان، بينما ملكة المعرفة في الفلسفة هي العقل.[5]

فمارتن لوثر لا ينكر دور الفلسفة بل يؤكد على أهميتها في تنظيم حياة الإنسان لكن الإستخدام السيئ للعقل يؤدي إلى أمور غير مرغوب فيها إذ يقول: يجب على الفلسفة أن تقنع

---

[1] سورة يونس، الآية 84

[2] سورة آل عمران، الآية 52

[3] سورة آل عمران، الآية 19

[4] سورة آل عمران، الآية 85

[5] عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984،ص365

بالبحث في المادة وفي الكيفيات الأولية والثانوية، وأن تقوم بالتميز بين الأغراض والجوهر، أما عن العلل فإنها لن تستطيع أن تفوت شيئاً.[1]

ويبدو من خلال قول مارتن لوثر أنه أراد أن يحد من عمل الفلسفة حيث حصر عملها في الوجود فقط، وأن لا تتدخل في أمور غيبية كالدين، والحديث عن الفلسفة في العصر الحديث ضروري لأنها تمثل مرحلة مهمة في الحياة الدينية في العصر الحديث.

وما يمكن قوله في الأخير أن الحديث عن الدين حديث عن التاريخ القديم وحديث عن الأصول الأولى للإنسان ,وهذا فإن دل على شيء إنما يدل على مدى أهمية الدين في الحياة البشرية ومدى حاجة الإنسان للدين في مواجهة القلق العميق الذي يكتنف وجوده داخل كون قذف فيه وأسلم للموت، فالإنسان يبقى دائما بحاجة ماسة للدين وبحاجة قصوى إلى إله يحتمي به ويقوي به من ضعفه، ومما لاشك فيه أن الإنسان بعد ولادته يرث العديد من الاشياء من والديه وبدون شك أن الدين هو أخطر هذه الموروثات على الإطلاق إذ يتوقف عليه المصير الأبدي للإنسان، فالمتتبع للحركة الدينية وتاريخها يجد أن العالم يموج بما لا حصر له من الأديان والمعتقدات والإختلاف بينها واقع ملموس ولكن الأمور مشتركة ترى بين اليهودية والنصرانية والإسلامية, ولكن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح ويردده كل إنسان مفكر"

لماذا الاختلاف في دين الله؟

ولماذا نجد من ينكر الدين ولا يقتنع به؟

ومن خلال كل ما سبق يتضح لنا أن دفيد هيوم يعتبر بحق قمة الفلسفة التجريبية الانجليزية كونه وصل بموقف كل من جون لوك وجورج باركلي إلى آخر نتائجه المنطقية، كما أنه استأصل كل ما هو غيبي تجريبي، ويجب القول أن تأثر هيوم بالفلاسفة السابقين له فضل كبير فيما وصل إليه، فما كان يصل إلى ذلك دون اعتماده على أفكار كل من سابقيه جون لوك وجورج باركلي، ويمكن إضافة

[1] المرجع نفسه، ص ص364 ، 365

توماس هوبز ورجل الدين كالفن فكتابات هؤلاء وأفكارهم كانت بمثابة القاعدة الصلبة التي وضع عليها هيوم قدميه من أجل بناء مشروعه وتشييده.

إن المعرفة الإنسانية عند هيوم ترجع في نسقه الفلسفي إلى مصدرين أساسين هما الانطباعات والأفكار، حيث يشتملان على الانطباعات والاحساسات والعواطف والانفعالات، وتنقسم الانطباعات والأفكار من حيث تركيبها إلى بسيطة ومركبة فالأولى لا تقبل القسمة إلى أجزاء بينما المركبة تقبل، ويجب الإشارة إلى أن العقل يمكن أن يربط بين الأفكار البسيطة ليشكل منها أفكارا مركبة لا نظير لها إلا أن قدرته رغم ذلك تبقى محدودة، فهو حسب هيوم يستقبل الآثار الحسية التي ينتج عنها الأفكار بطريقة آلية حسب قوانين تداعي المعاني، وأهم هذه القوانين هي علاقة العلية لأنها أساس المعرفة العلمية ،ويضيف هيوم قانون التشابه وقانون التجاوز الزماني والمكاني فالعقل يستخدم هذه الطرق للمقارنة والتمييز بين أفكاره، دون أن ننسى أن هيوم قد اعتبر الحواس هي وحدها مصدر المعرفة فهي تقدم أصل وصورة الشيء الخارجي فقط، وهنا يأتي دور كل من الذاكرة والخيال باعتبارهما حسب هيوم طريقان للمعرفة، حيث يرتبطان إرتباطا وثيقا بالانطباعات والأفكار فالذاكرة ترتبط بالانطباع والخيال يرتبط بالفكرة ،لذا فالذاكرة نستعين بها في إعادة انطباعاتنا في الحالة لأولى أما الخيال فيشكل الأفكار التي فقدت حيويتها، ولا يمكن حسب هيوم الوصول إلى معرفة من دون عبور طريقي الذاكرة والخيال كطريقين رئيسيين.

الفصل الثاني :

الدين والميتافيزيقا عند هيوم

المباحث :

- الفلسفة الدينية
- موقـــف هيـــوم مـــن المرتكـــزات الميتافيزيقية للدين
- العلية عند هيوم

الفصل الثاني: الدين والميتافيزيقا عند هيوم

تمهيد:

لا يـزال مبحـث الـدين مبحثـا جـذابا يـدعو في كـل العصـور إلى الإطـلال علـى تخـوم معرفيـة ضـلت حـتى الآن تحـير العقـل الإنسـاني، ولا يعتـبر العصـر الحـديث إسـتثناء مـن هـذه الحالـة العامـة، فلقـد ضـل الـدين مسـألة جوهريـة موجهـة لتفكـير الفلاسـفة المحـدثين، إلا أن هـؤلاء الفلاسـفة لم يكونـوا ليبحثـوا في موضـوع الـدين باعتبـاره موضـوعا قـابلا للدراسـة الفلسـفية العقليـة ,إلا بعـد الإصـلاح الـذي عرفتـه الكنيسـة علـى يـد "مـارتن لـوثر"، فإرهاصـات هـذا الأخـير تعتـبر اللبنـة الأولى لتشـكيل فلسـفة دينيـة تقـوم علـى الإيمـان بقـدرات العقـل الإنسـاني في فهـم وتفسـير المعتقـد الـديني، ومـن بـين الفلاسـفة المحـدثين الـذين عـالجوا مسـألة الـدين وتعمقـوا فيهـا نجـد "هيـوم" فقـد أعطـى للظـاهرة الدينيـة أهميـة كبـيرة، وقـد عـبر عـن آراءه حـول الـدين في كتبـه الدينيـة مثـل "التـاريخ الطبيعـي للـدين" وكتـاب "**محـاورات فـي الـدين الطبيعـي**"، كمـا أورد مبحـث حـول المعجـزات في كتابـه "**بحـث فـي الفهـم الإنسـاني**" حيـث يطـرح في هـذه المؤلفـات رأيـه وموقفـه مـن الـدين مـبرزا أهميتـه بالنسـبة للطبيعـة البشـرية، ومـن أجـل الوقـوف علـى أهـم المشـاكل الدينيـة الـتي طرحها هيوم، نطرح بعض التساؤلات التي تقربنا من فهم مشكلة هذا الفصل وهي كالتالي:

مـا هـي الأسـباب الـتي أدت إلى نشـأة الاعتقـاد الـديني؟ وكيـف يمكـن تحديـد مراحـل تطـور الـدين؟ وهـل الـدين مـن الأسـاس أمـر ممكـن عقليـا؟ ومـا هـي نظـرة هيـوم للـدين وسـائر الأمـور الميتافيزيقيـة؟ أو مـا مكانة الدين في فلسفة هيوم وكيف كانت نظرة هيوم لسائر الأمور الميتافيزيقية؟

المبحث الأول: الفلسفة الدينية

أراد هيـوم في بحثـه النقـدي لفلسـفة الـدين اكتشـاف كيفيـة نشـوء التصـورات التاريخيـة المختلفـة حـول الله والتسـاؤل عـن مـدى متانتهـا، فالـدين بالنسـبة إليـه لا يعـني دلالـة علـى ظـاهرة ذات أصـل متعـال بـل هـو نتـاج للفكـر الإنسـاني[1]، فهيـوم بهـذا الكـلام أراد أن ينـزع تلـك النظـرة المتعاليـة للـدين وذلـك بـرده إلى الأصـل الإنسـاني مـن خـلال جـل الخـبرات الـتي مـر بهـا الإنسـان، والـتي أدت بـه إلى الاهتـداء للـدين ولكن يا ترى: ماهي الأسباب التي أدت بالإنسان إلى البحث عن دين أو اللجوء إلى إلاه؟

المطلب الأول: أصل الدين

يجيبنـا هيـوم مـن خـلال أن الأصـل في الـدين هـو: المعطيـات النفسـية، وبخاصـة الخـوف والامـل اللـذين ينبعـان مـن وعـي الكـائن بالضـعف وشـعوره بعـدم الأمـان[2]، فالإنسـان لمـا وجـد نفسـه وحيـدا في هـذا العـالم الواسـع شـعر بـالخوف وعـدم الارتيـاح بالإضـافة إلى شـعوره بضـعفه اتجـاه تحقيـق أو الحصـول علـى حاجياتـه الضـرورية، هـذا الضـعف وعـدم المقـدرة تبعـث داخـل الإنسـان فكـرة الحاجـة أي أنـه محتـاج إلى عون يرشده في ظلمات هذا العالم.

ومـن خـلال فكـرة دافيـد هيـوم يمكننـا القـول أن هيـوم مـن أنصـار "الاتجـاه العـاطفي" في نشـأة الـدين، حيـث يـرى هـذا الاتجـاه أن الأصـل في الـدين الإنسـاني همـا عـاطفتين أساسـيتين "الخـوف والطمـع" وبمـا أن منتهـى مخـاوف الإنسـان هـو خوفـه مـن المـوت ومنتهـى طمعـه هـو الاسـتمرار والخلـود بعـد المـوت ,لـيخلص أنصـار هـذا الاتجـاه إلى أن مفهـوم الألوهـة لم يترسـخ إلا لكـي يضـمن لنفسـه خلاصـا وبقـاء أبديا[3].

وفي مقابـل الاتجـاه العـاطفي نجـد الاتجـاه الطبيعـاني، هـذا الأخـير صـاغه الباحـث في تـاريخ الأديـان الألمـاني "مـاكس مـوللر" الـذي وجـد بعـد دراسـته لـبعض نمـاذج الـديانات القديمـة مثـل الهنديـة، أن أسمـاء

---

[1] مؤلفون: أطلس الفلسفة، ص 127.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] فراس الواح، دين الإنسان، ص 318.

الآلهة هي عبارة عن كلمات دالة على ظواهر طبيعية مثل النار والسماء والشمس، ليخلص "موللر" إلى أن العواطف الأولى الدينية في أشكالها الأولى نشأت نتيجة استشارة وجاءت من عالم الطبيعة[1]، فالطبيعة كانت كمصدر للآلهة من خلال النظام السائد فيها الذي تتحرك به بالإضافة إلى الكوارث الطبيعية التي كانت تبعث الانبهار في نفوس البشر أنذاك.

دون أن ننسى كذلك النظرية الأرواحية في تفسير الدين والتي بقيت لحد الآن نظرية كلاسيكية تتمتع ببعض القبول، حيث يرى عالم الاجتماع البريطاني "هربرت سبنسر" أن البشرية قد مرت في مراحلها الاولى بزمن لم تعرف خلاله الدين,ثم بدأ الدين بالتكوين عندما أخذت الجماعات البشرية بتقديس أرواح زعمائها الراحلين وتحولت أرواح هؤلاء الأسلاف إلى آلهة تمركز الدين حولها وابتدأ بها[2]،هربرت سبنسر هنا انتقل من النظرة التقديسية للروح حيث كانت هذه القدسية شائعة في الديانات السابقة كالفرعونية مثلا , فقد كانت الروح في هذه المرحلة رمز القدسية التي جعلت منها مركزا متعالي يجب التقرب إليه بالقرابين ,ومنطلقا للسحر والشعوذة في اعتقاد منهم بأن الروح بعد الموت تتحول وتنتقل من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان آخر.

هذه النظريات هي أهم التفسيرات التي طرحها المفكرون في العصر الحديث أثناء بحثهم عن أصل الدين أو بالأحرى أصل الآلهة ,والنتيجة التي توصلوا لها كانت نتيجة دراستهم للحضارات والديانات القديمة التي تعتبر السباقة في اكتشاف الدين، إلا أن اختلاف التفسيرات أو عدم الاتفاق حول أصل الدين أو الآلهة يزيد من نسبية الحقيقة ويترك الشك قائما.

المطلب الثاني:تفسير الدين

ومع تشعب هذا الاختلاف حول الصورة التي كان عليها الدين إلا أنه يمكن حصره في قسمين رئيسيين[3]، فالأول يرتكز على النظريات التطورية التي ترى أن شأن الإنسان مع الدين كشأنه مع مظاهر الحضارة الأخرى من فن وعلم وفلسفة، فإذا كانت حركة الحضارة الإنسانية عامة هي حركة

[1] المرجع السابق، ص 313

[2] المرجع نفسه، ص 312.

[3] محمد عثمان الخشت: الدين والميتافيزيقا عند هيوم، ص13.

تطـور وارتقـاء فـإن الـدين بوصـفه نشـاطا إنسـانيا قـد مـر بمختلـف مراحـل التطـور والإرتقـاء مـن أدنى إلى أعلى, بدء من تعدد الآلهة مرورا بالنظر إليها نظرة هرمية حتى وصلت الإنسانية إلى الوحدانية.

1/ هـذا القسـم يـرى ان الـدين التوحيـدي الـذي يوجـد اليـوم هـو أعلـى مراحـل التقـدم الـتي مـر بهـا الـدين ,فهـو في القـديم لم يكـن علـى مـا هـو عليـه اليـوم بـل مـر بعديـد المراحـل الـتي سـاهمت في تشـكيله وتطـويره إلى أن وصل إلينا على هذه الصورة.

2/ أمـا القسـم الثـاني مـن النظريـات المفسـرة لنشـأة الـدين ,فيتمثـل في تلـك الوجهـة مـن الإعتقـاد الـتي تؤكـد أن البشـرية بـدأت أول مـا بـدأت بالتوحيـد، الـذي تكشـف لهـا إمـا بالتأمـل النظـري أو بـوحي إلهـي، والـذي لم يكـن الشـرك إلا مظهـرا مـن مظـاهر فسـاده[1]، هـذا التفسـير هـو لـب مـا جـاءت بـه الـديانات مثـل اليهوديـة والمسـيحية وحـتى الإسـلامية، وهـذا مـا أكدتـه أغلـب نصوصـها في كتبهـا المقدسـة، وهـذا مـا تأكـده الآيـة الكريمـة إذ يقـول تعـالى: **{كـان النـاس أمـة واحـدة فبعـث الله النبيئـين مبشـرين ومنـذرين وأنـزل معهـم الكتـاب بـالحق لـيحكم بـين النـاس فيمـا اختلفـوا فيـه ومـا اختلـف فيـه إلا الـذين أوتـوه مـن بعـد مـا جـاءتهم البينـات بغيـا بينـهم فهـدى الله الـذين آمنـوا لمـا اختلفـوا فيـه مـن الحـق بإذنـه والله يهـدي من يشاء إلى صراط مستقيم}**[2]

المطلب الثالث:أصل الدين في الفترة الحديثة (عصر هيوم)

وبطبيعـة الحـال لم تكـن صـورة الخـلاف حـول نشـأة الـدين في عصـر هيـوم بمثـل هـذا التنـوع المـذكور أعـلاه، حيـث كـان يشـيع في عصـره تفسـيران: أولهمـا يقـول بـأن الـدين الأول للإنسـان كـان هـو التوحيـد الإلهـي الـذي عرفـه الإنسـان عـن طريـق الـوحي وليـس عـن طريـق التأمـل النظـري، ثم حـاد الإنسـان عـن التوحيـد وسـقط نتيجـة الخطيئـة في الشـرك والوثنيـة[3]، وهـو التفسـير الشـائع الـذي قالـت بـه الـديانات السـماوية خاصـة بمـا تعلـق بمسـألة الـوحي الـذي يصـل إليـه الإنسـان مـن خـلال واسـطة مـا، أمـا التفسـير

[1] المرجع السابق، ص14.

[2] سورة البقرة، الآية 213.

[3] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا، ص14.

الثاني فيقول بتعدد الآلهة أو الشرك الذي كان هو أول مظهر للدين، وقد عرفه الإنسان نتيجة التأمل في انتظام الكون والبحث عن علل ظواهر الطبيعة، وكان القائل بهذا التفسير هو فونتيل[1].

هذا التفسير يؤكد على أن الإنسان لما وجد لوحده في هذا العالم من دون مرشد اهتدى بحواسه وتأملاته في الطبيعة ومظاهرها التي بعثت في نفسه الخوف والانبهار منها، فاتخذ من بعض أجزائها التي تمتاز بالنظام الهائل آلهة يرجع ويلجأ إليها وقت الحاجة ,وهذا نتيجة ضعف الإنسان وعدم قدرته على مواجهة ما يعترضه في هذه الحياة, فكانت الطبيعة ملجأ لتفسير ضعفه وعجزه، وهذا ما يفسر تعدد الآلهة فقد اختار الإنسان في ذلك الوقت إلهه حسب حاجاته، فالمزارع يملك إله وللجار إله وللمرأة إله وللرجل إله، كل اتخذ إلهه هواه معتقدين أن وراء كل ظاهرة إله.

ويتفق هيوم مع فونتيل في أن الشرك كان المظهر الأول للدين لكنه يختلف معه في أن الأسباب التي أدت إلى الشرك ,إذ يستبعد هيوم أن يكون التأمل النظري في انتظام علل الطبيعة من بين الاهتمامات التي شغلت تفكير الإنسان البدائي بهمجيته وبربريته، وذهب هيوم إلى أن الشرك كان الدين الأول للإنسان انطلاقا من تسليمه بأن حركة المجتمع الإنساني هي حركة تطور وارتقاء من المرحلة البدائية الأولى إلى مراحل أخرى أرقى[2]، اتضح من خلال القول أن هيوم من أنصار نظرية التطور في الدين قياسا على باقي مظاهر الحضارات الأخرى من علوم وفن وفلسفة حيث تبدأ من حالة أدنى إلى حالة أسمى حتى تصل إلى أعتاب التقدم الحضاري.

وفي هذا يقول هيوم: "إذا وضعنا في اعتبارنا ارتقاء المجتمع الإنساني من بداياته الجاهلية الاولى إلى حالة الكمال الأعظم التي وصل إليها فإنه يبدو لي أن الشرك أو الوثنية كانت أو ينبغي أن تكون الدين الأول والأبعد قدما في تاريخ النوع الإنساني"[3]، وفي هذا القول تصريح مباشر من هيوم وتأكيد منه على أن الدين الأول الذي عرفته الإنسانية جمعاء هو دين الشرك وهو الأبعد زمنيا في الأقدمية في تاريخ البشر.

---

[1] المرجع السابق، ص 14.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[3] نقلا عن: محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا عند هيوم، ص15.

كما أن هيوم يرى في النظرية التي تقول بأن الأصل الاول في بداية الدين هو التوحيد أنها تحتوي على تناقض، إذ أنها تعني أن الإنسانية عندما كانت في حالة جهل وبربرية اكتشفت الحقيقة، لكنها وقعت في الخطأ بمجرد أن حصلت على التعليم والتهذيب، إذ يقول هيوم هنا مخاطبا القائل بهذه النظرية: "إنك في هذا التقرير لا تناقض فقط كل ما هو ظاهر من الإحتمال، بل تناقض أيضا خبرتنا الحالية عن مبادئ وآراء الشعوب الهمجية، إن القبائل الهمجية في أمريكا، إفريقيا، وآسيا كلها وثنية ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة"[1]، أراد هيوم بهذا القول وهذه الحجة أن يثبت نسبية نظرية التوحيد لما اكد على أن البشرية بعد ما مرت بمجموعة من المراحل ,اكتسبت العديد من الخبرات سمحت لها بالاقتراب أكثر من الحقيقة بعد ما كانت لا تعلم شيئا عن هذا العالم المظلم، وأنها ما كانت لتصل إلى ما وصلت له قبل ملايين السنين وقبل أن تمر بكل هذه المراحل التي سمحت لها بالتطور والإرتقاء.

ونوضح هنا وجهة نظر هيوم وتعريفه للدين الطبيعي والدين التوحيدي إذا يعرفهما على أنهما:

1/ **الدين الطبيعي**: هو الدين الابتدائي للبشرية يبتدأ أساسا من الخوف والقلق اتجاه أحداث الحياة المستقبلية والخوف من المجهول، فالإنسان البدائي لم يكن يملك الوعي الذي يجعله يفكر نظريا في الظواهر الكونية، ولم يكن مشغولا بالتفسير العقلي لأعمال الطبيعة.[2]، إن الأفكار الدينية حسب وجهة نظر هيوم لم تنشأ من التفكير والتأمل في الظواهر الطبيعية وإنما نشأت وتشكلت إزاء أحداث الحياة، ومن المخاوف والآمال التي تحرك الإنسان.

2/ **الدين التوحيدي**: هو عبادة تفترض وجود إله واحد يمتاز بكمال العقل والحكمة والعدالة، ويعمل على رفض كل شيء غير معقول، وهو عكس لكل دين فيه شرك كما أنه يعد من العبادات الأكثر قبولا في القديم، من دوافعه العدالة والخير والحكمة[3]، هذا ما يرفضه هيوم وأن هذه النظرية تنطوي على التناقض، فالشرك هو المرحلة الأولى والأكثر قدما كونه يرفض كل المقومات التي يتأسس عليها هذا النوع من الدين أبرزها التشكيك في أدلة وجود الله.

---

[1] المرجع السابق، ص16.

[2] "David hume" The natural history of religion ; p 31.

[3] Ibid ;p20.

المبحث الثاني:موقف هيوم من المرتكزات الميتافيزيقية للدين

ولتبيين وجهة نظر دفيد هيوم حول جل المرتكزات الميتافيزيقية التي يعتبرها أصحاب الدين انها بمثابة الركيزة الأساسية التي يثبتون بها عقيدتهم، وسنحاول أن نلقي نتعرف على رأي هيوم حول هذه المرتكزات.

المطلب الأول:نقد هيوم لأدلة وجود الله:

لقد ذهب هيوم في مواضع مختلفة من كتبه إلى أن تلك المرتكزات التي يقوم عليها أي دين ,ليست إلا عقائد غير عقلانية ولا يمكن إقامة برهان محكم لا يقبل النقض عليها، وقد سعى هيوم جاهدا لتقديم العديد من البراهين لتفنيد كل الأدلة التي تحاول إثبات صدق المرتكزات التي تؤكد على الحقائق الميتافيزيقية التي يقوم عليها أي دين، ومن بين نتائج فلسفة هيوم هو سعيه لنقد كل دليل ينهض على وجود الله، فهو يقول في كتابه محاورات في الدين الطبيعي "إننا لا نعلم عن العلة شيئا إلا أنها الحادثة السابقة التي نشاهدها قبل حدوث معلولها، وإذن لا بد من مشاهدة الحادثتين معا، السابقة واللاحقة على السواء، إننا نستدل من وجود الساعة على وجود صانعها لأننا رأينا الساعة والصانع كليهما، فإذن وجود السكون لا يقوم دليلا على وجود صانعه إلا إذا رأينا الصانع والمصنوع جميعا"[1]، أراد هيوم هنا أن يثبت أنه لا وجود لإله لأننا لا نراه فكيف نرجع الأسباب إلى سبب لا يمكن رؤيته والبرهنة على وجوده بالتجربة، وهنا عارضه "توماس ريد" بأن في الطبيعة علامات كثيرة تدل على أنه يسير وفق خطة معينة، ووجود خطة تقتضي وجود سبب عاقل، فأجابه هيوم بأنه إذا كان لا بد من البحث عن علة لكل شيء، لوجب إذن أن نبحث عن علة الإله نفسه[2]،وبهذه الحجة القوية، أراد هيوم أن يوضح أن سر هذا النظام السائد في الطبيعة لا يعود إلى إله خارق ذو قوة وإنما يعود إلى الطبيعة ذاتها التي عرفت بنظامها وقوانينها، وهذا ما أثبتته التجربة وتأكدنا منه بحواسنا ولا يمكن نفي ما هو واضح ورد السبب والعلة إلى قوة غيبية غير مرئية لا يمكن ملاحظتها.

---

[1] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص244.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ويـرفض هيـوم الأدلـة علـى وجـود الله وينقـدها وهـي: الـدليل الوجـودي، والـدليل الكـوني والـدليل الغائي:

أمـا الحجـة المضـادة للـدليل الوجـودي فتتمثـل في أنـه لـو ان إنسـانا تجـرد مـن كـل شـيء يعرفـه أو يـراه لعجـز تمامـا علـى أن يعـين اسـتنادا إلى أفكـاره الخاصـة فحسـب الصـورة الـتي عليهـا العـالم... كمـا أن كـل صـورة واهمـة في مخيلتـه تكـون علـى منزلـة مماثلـة لمنزلـة أخـرى...فلا يمكنـه أن يقصـي فكـرة منهمـا وكلاهمـا يسـتويان في الإمكـان، فـأي شـيء نتصـوره موجـودا بمقـدورنا أن نتصـوره غـير موجـود أيضـا، ومـن ثم فـلا وجـود لكـائن يشـتمل عـدم وجـوده علـى تنـاقض[1]، هيـوم هنـا أراد أن يبـين أن كـل شـيء يكـون في مخيلـة الإنسـان موجـود فهـو يحتمـل عـدم وجـوده, وبالتـالي فـلا يمكـن الحكـم بإحـدى التصـورين مـا دام كلاهمـا يحـتملان الصـدق، ولا يمكـن نفـي أحـدهما، ويضـيف هيـوم في نقـده لهـذه الحجـة أن التجربـة لا تقـدم لنـا أي انطبـاع ضـروري عـن موجـود واجـب الوجـود، والمسـؤول عـن فكـرة الموجـود الضـروري هـو الخيـال الـذي يمـد معرفتنـا التجريبيـة ببعض الصـفات مثـل القـدرة والحكمـة والعلـم إلى غـير نهايـة ويسـتحيل أنهـا موجـودة في كـائن كامـل هـو الله، لكـن الخيـال قـادر أيضـا علـى سـلب الوجـود عـن الموجـود أيـا كـان، ومـن ثمـة فـلا وجـود لكـائن يمكـن إثبـات وجـوده[2]، وهكـذا انتهـت حجـة هيـوم المضـادة إلى إثبـات اسـتحالة البرهنـة علـى وجود أي شيء.

أمـا إذا انتقلنـا إلى حجـة هيـوم المضـادة ضـد الـدليل الكـوني أو مـا يسـمى دليـل المحـرك الاول فإنـه يـرى أنـه لا يوجـد هنـاك مـا يحـتم التسـليم بـه ونبـذ المـذهب المـادي, إذ يمكـن أن تبـدا الحركـة بالنقـل أو الكهربـاء مـثلا دون فاعـل مـر بـه[3]، حيـث يصـح أن تكـون نوعـا مـن فعـل التوليـد داخـل الطبيعـة ذاتهـا، ثم لمـاذا نبحـث عـن السـبب الكـافي للكـون خـارج عنـه إلا إذا كنـا نفـترض إعتسـافا أنـه كـل محـدود[4]، ومـا دام هنـاك شـك في هـذا الكـل ,فهـذا الشـك جـزء مـن كليتـه، ومـا دام كـذلك فهـو جـزء كبـاقي الأجـزاء لا غير.

---

[1] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص ص25، 26.

[2] المرجع نفسه، ص26.

[3] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص179.

[4] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا عند هيوم، ص26

واستكمالا لنقد هيوم للدليل الكوني أو العلية يقول هيوم على لسان فيلون في المحاورات "الحق أن الطبيعيين لا يفسرون تفسيرا صحيحا جدا جزئية بعلل أعم، وإن لزم أن تضل هذه العلل في النهاية مستعصية على التفسير استعصاء تاما، ولكن لا شك أنهم لم يقتنعوا قط بتفسير معلول جزئي بعلة جزئية ليست أوضح تفسيرا من المعلول نفسه ,وإن نظاما مثاليا قد ترتب دون تدبير سابق ليس اخضع للتفسير من نظام مادي يحقق نظامه على نحو ماثل , وليس في الإفتراض الأخير إشكال اعظم منه في الإفتراض الأول "[1]، إن رفض هيوم هنا للعلية رفض صريح حيث ينفي أن يتم رد المعلولات إلى علة تحتاج تفسير وفهم, في إشارة منه إلى غموض فكرة العلية والتي يقصد بها الإله، كما أن هيوم لا يرفض العلية في مجال الدين فقط، وإنما تعداه إلى التشكيك فيها حتى في مجال الابستيمولوجيا.

وأما إذا انتقلنا إلى دليل الغائية فإن هيوم يقدم حجة مضادة ضده كون أن هذا الدليل يقتضي تمثيل العالم أو الكون بآلة صناعية وتمثيل الله بالصانع الإنساني ,ولكن الصانع الإنساني علة محدودة تعمل في جزء محدود، فبأي حق نمد التشبيه إلى هذا الكل العظيم الذي هو الكون ونحن لا ندري إذا كان متجانسا في جميع أنحائه, ولو سلمنا بهذه المماثلة لما انتهينا حتما إلى الإله الذي يقصده أصحاب الدليل، إنما تستدل بما في الكون من نقص على أن الإله متناه وهكذا[2]،فهيوم اتهم أصحاب الدليل الغائي أنفسهم بمحاولتهم الحط من قيمة الإله لما شبهوه بإنسان محدود, ولأن هذا التشبيه الذي يعتبرونه دليل هو نفسه يحمل بذور فنائه كونه جعل من الإله محدود, وكونهم استدلوا بما في الكون من نقائص مع العلم بإيمانهم بأن الكون من صنع الإله والإله الكامل لا يصنع ولا ينتج عنه شيء ناقص، كما يضيف هيوم حجة أخرى مضادة تتمثل في أن القصدية وملائمة الوسائل للغايات يمكن أن تكون آنية من انتظام طبيعي متأصل في المادة، أو من قبيل المصادفة أو ربما تكون آتية من تعاون جماعة من الآلهة أو أنها لم تنشأ من تخطيط إلهي بل عن تجارب الطبيعة البطيئة المتخبطة خلال آلاف السنين، اي نتيجة الانتخاب الطبيعي أو أن الله مجرد نفس كلية او قو نامية كالقوة التي تحدث النظام في النبات بلا وعي أو قصد[3].

---

[1] دافيد هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص65.

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص350.

[3] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا عند هيوم، ص26.

يقدم هيوم من خلال هذه الحجة مجموعة من التفسيرات لما يحدث في الكون من نشاط حيث يرفض أن يرجع أو أن ينسب كل ما يحدث في هذا الكون وفي الطبيعة إلى إله، لأن هناك العديد من التفسيرات التي تزاحم تفسير الغائية ,سعيا منه إلى جعل دليل الغائية مجرد دليل مثله مثل باقي التفاسير بل يجعل منه آخر تفسير في مقابل التفسيرات التي قدمها.كما يطعن هيوم في فكرة القصد والغائية ويقدم ما يهدمها من الأساس, فقصور ملائمة الوسائل للغايات وآلاف الآلام في دنيا الإنسان والحيوان، تكشف عن احسن الفروض عن إله محدود القدرات والذكاء أو إله غير مكترث للبشر بتاتا فحياة "الإنسان في النهاية ليست أعظم أهمية للكون عن حياة المحارة".وهنا يعود هيوم إلى السؤال القديم لأبيقور الذي لا يزال بدون إجابة حتى الآن: هل الإله مؤهل للحيلولة دون وقوع الشر، ولكنه ليس قادرا على ذلك؟ إذن فهل هو غير قادر على كل شيء؟ أم هو قادر ولكنه غير راغب؟ إذن فهو يريد وجود الشر؟ وإذا لم يكن راضيا عن الشر فمن أين إذن جاء هذا الشر[1].

كل هذه الأسئلة **لأبيقور*** أراد هيوم أم يؤكد بها أن العالم مليء بالنقائص التي تعود بالآلام على الإنسان وتعرقله في هذه الحياة ,ولو أن لهذا العالم إله لما سمح بوقوع هذه الآلام في دنيا الإنسان والحيوان وكون أن الإله يمتاز بالكمال والحكمة والقوة ما كان هذا العالم يعاني من هذه النقائص إذا كان من صنعه ,لأن الإله الذي يمتاز بالكمال لا ينبثق أو ينتج عنه شيء ناقص، كما يقول هيوم: "يخيل للمرء أن هذا الإنتاج العظيم لم يتلق آخر اللمسات من خالقه فكل جزء فيه ناقص الصقل جدا والخطوط التي نفذ بها في غاية الخشونة... ليس في كون شيء كثير النفع إلا إذا انقلب الكرة بعد المرة مؤديا لإفراطه أو قصوره، ثم إن الطبيعة لم تتخذ حيطتها بالدقة المطلوبة من جميع ألوان الخلل أو الفوضى"[2]، وبهذا القول يؤكد هيوم استحالة وجود إله لهذا العالم وأن الطبيعة هي التي تحكم بنفسها ولهذا نجد ذلك التناقض والفوضى لأن الإله الكامل لا يسمح بوجود مثل هذا الخلل ويشرع كل هذه

---

[1] نقلا عن: المرجع السابق ، ص27.

* فيلسوف يوناني ولد في أثينا أنشأ مدرسة يعلم فيها، أشهر ما يعرف عنه نظريته الخلقية في مذهب اللذة وأن اللذة وحدها هي الخير، ولم يبق من مؤلفاته إلا ثلاث رسائل تتضمن خلاصة مذهب اللذة (كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص13)

[2] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا، ص27.

الفوضى، بالإضافة إلى هذا يقول أيضا هيوم: "افحص بتدقيق هذه الكائنات الحية... ما أشد عدائها وتدمير بعضها البعض... والكل لا يمثل سوى فكرة الطبيعة العمياء التي تزخر بمبدأ حيوي عظيم، ويتدفق من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية لأطفالها التائهين العاجزين"[1]، فالطبيعة القاسية هي سبب هذا العداء والخشونة وهي المسؤولة عن شيوع الشر والفوضى بين بني البشر دون رحمة أو شفقة، فالقوي يأكل الضعيف لكن هيوم يقوم بشيء من التراجع في خاتمة المطاف فيرى بأنه لا مانع من احتمال أن يكون هناك إله، ولكنه يقرر في الوقت نفسه أن هذا الإحتمال نفسه ليس من نوع الإحتمال العلمي، كما أن هذا الإله لا يشبه إله الأديان إلا من بعيد جدا، وكون أن هيوم رأى أنه لا يمكن إثبات وجود الإله بأدلة علمية تجريبية جعله هذا يعتبر أن العناية الإلهية وكل قصة الخلق كما تؤمن بها المسيحية وكل الأخرويات مجرد خرافة[2]، فهو لا ينفي وجود الإله نفيا قطعيا ولكنه يرى بأن الأدلة العلمية عاجزة عن إثباته، إلا أن هيوم وفي كتابه محاورات في الدين الطبيعي جعل فيلون يشرح -في تلك المحاورة الأخيرة- كيف يترك نقده للدين الطبيعي المجال مفتوحا أمام الوحي فيقول: "إن أبلغ شعور طبيعي يستشعره لهذه المناسبة ذهن معد إعدادا طبيعيا هو رغبة مشوقة وتوقع في أن السموات يسرها أن تبدد ولو على نحو طفيف هذا الجهل العميق بأن تمد البشر بوحي خاص..."، وهذا ما يترك السؤال مطروحا هل كان هذا التصريح من طرف هيوم على لسان فيلون واحدا من تدابير الحيطة التي كانت مألوفة الغاية في القرن الثامن عشر؟ وهل كان هيوم بحق صادقا فيما يقول؟ خاصة وأن كل ما ساقه على لسان فيلون لا يمكن أن يؤدي إلى مثل هذا القول؟[3]

لقد أراد هيوم من خلال هذا التصريح أن يترك لنفسه بابا ينفذ منه وهذا راجع لشكه الكبير لأنه كما قلنا سابقا أن هيوم لا ينفي وجود إله نفيا مطلقا لكنه يرى بأن الأدلة عاجزة عن إثباته، فكان تصريحه هذا من قبل تدابير الحيطة حرصا منه على أنه قد تظهر في المستقبل أدلة علمية تجريبية قد تثبت وجود الله.

---

[1] المرجع السابق، ص27.

[2] المرجع نفسه، ص28

[3] نقلا عن: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وما يمكن قوله من خلال كل ما سبق أن هيوم سعى جاهدا لنفي ودحض كل الأدلة التي تسعى إلى إثبات وجود الله ,وغايته في ذلك هو إثبات مدى مصداقية المذهب التجريبي وكذلك إثبات نظريته القائمة على نفي العلية أو السببية التي نقدها في مجال الدين وكذلك مجال الابستيمولوجيا، ولعل ما يلفت النظر في كل ما صرح به هيوم هو ما ختم به في تلك المحاورة الأخيرة في كتابه محاورات في الدين الطبيعي حيث أبان على بعض الشك في وجود إله جعله يأخذ تدابير الحيطة والحذر خوفا منه على ظهور أدلة قد تثبت ما قد نفاه مسبقا ,لنقول أن شك هيوم قد لمس جميع المواضيع التي عالجها في النقاط التي كان يدافع عنها ويؤمن بها، لذا نقول أن هيوم قد انتهى إلى الشك فلم يستطع أن يبرهن على وجود الله لتعارضه مع حيثيات المنهج التجريبي ولم يستطع في نفس الوقت إنكار وجود الله لأن هناك حقائق لا يمكن نفيها لهذا قال عبارته الشهيرة "إن وجود الله لا نصل إليه لا بخبرة حسية ولا باستدلال"[1]

المطلب الثاني: مسألة الروح عند هيوم

قبل الشروع في معالجة مسألة الروح والتفصيل في رأي هيوم حول هذه المسألة لا بد من التطرق إلى تعريفها، حيث يستعمل اللفظ الإنجليزي esprit بمعنى الجوهر الذي يبقى بعد الموت ويستعمل اللفظ الألماني seel بمعنى العقل mind، ويقال في لسان العرب على ما تقال عليه النفس حيث يستعمله المتفلسفون بالاشتراك، فالنفس والروح اثنان بالقول واحد بالموضوع[2].

وكلمة الروح كلمة لاتينية وتعني النفس وهي مفهوم يرتبط ارتباطا كبيرا بمفاهيم المثل الأعلى والوعي كأرقى شكل للنشاط الذهني[3]، أما الروح في الإسلام فنجد الغزالي رحمه الله في محاولة لمعالجة مسألة الروح ,حيث اعتبرها أمر عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته منطلقا من قوله

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص351

[2] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007، ص330.

[3] الموسوعة الفلسفية، لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، إشراف: روزنتال بودين، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ص229.

تعالى: {**قل الروح من أمر ربي**}[1]، والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح ,إنها في نظره مركز الكيان البشري ونقطة ارتكازه، إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويرتبط عن طريقها... ويكفي أنها صلة الإنسان بالله، كما أن طاقة الروح لا تعرف الحدود وهي وحدها تملك الإتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل، وهي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي.. وتملك الإتصال بالله[2].

أما فيما يخص رأي هيوم حول مسألة الروح فإنه مثلما رفض كل الأدلة على وجود الله رفض كذلك كل الأدلة على خلود الروح، فالروح تعتبر العقيدة التي لا يكاد يخلو منها أي دين، ويرفض هيوم القول بخلود الروح لأنه لا يقر بوجود جوهر الروح أصلا لعدم وجود انطباع حسي واحد معين لها، إذ يقول : "لا بد لكل فكرة حقيقية أن تنشأ عن انطباع حسي واحد معين، لكن النفس أو الذات الشخصانية ليست انطباعا بذاته من الانطباعات الحسية"[3]، من خلال القول يتضح أن هيوم يرفض كل ما لا ينتج عن انطباع حسي واضح ظاهر وجلي، وبالتالي حسبه لا وجود للروح أو النفس أو الجوهر ما دام أن معيار الفكرة الحقيقية هو نشأتها عن انطباع حسي معين وواضح.

ويواصل هيوم دحضه لفكرة الروح إذ يرى أنه إن لم تكن النفس أو الروح جوهرا فلا يمكن القول عنها أنها خالدة، لأن الخلود يقتضي منها أن تكون بسيطة لا تتحلل، الأمر الذي يقتضي أن تكون جوهرا، ولكي يقال عن شيء بأنه جوهر بسيط يلزم أولا أن يكون جوهرا وهذا ما يرفضه هيوم حيث إنها لا تعدو أن تكون "حزمة أو مجموعة من الإدراكات يعقب بعضها بعضا، في سرعة هائلة لا يمكن تصورها... حتى نستطيع أن نجزم بأن الذات لا تكون ذاتا واحدة بسيطة مدى لحظة واحدة من الزمن كلا ولا هي تؤلف (هوية واحدة) تجمع العناصر المختلفة"[4]، وبهذا القول يصرح هيوم بأن الروح لا يمكن لها أن تكون جوهرا ولو للحظة واحدة لأنها تتألف من مجموعة من العناصر وبالتالي لا يمكن

---

[1] سورة الإسراء، الآية 85.

[2] أيوب دخل الله، التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1996، ص155.

[3] نقلا عن: محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا، ص29

[4] نقلا عن: المرجع نفسه، الصفحة نفسها

لها أن تكون بسيطة، وهو الشرط اللازم والضروري لكي تكون جوهرا وما دامت تفتقده فهي تفتقد صفة الجوهرية وبالتالي لا يمكن لها أن تمتاز بصفة الخلود لأنها مركبة ويمكن أن تتحلل إلى عناصر وأجزاء مختلفة، وبالإضافة إلى كل هذا يذهب هيوم إلى أن الموت هو عدم تام، لأن الطبيعة تؤكد أن الروح والبدن مرتبطان معا من البداية حتى النهاية، من المولد فالطفولة إلى الصبى والشباب حتى الكهولة والشيخوخة، وكل منهما يتوافق مع الآخر ويلازمه تلازما طرديا، بشكل يصعب معه الفصل بينهما، مما يؤكد أن النفس أو الروح تفنى بفناء الجسد ومن ثمة فلا معنى لوجود ثواب وعقاب أبديين[1]، أراد هيوم أن ينفي خلود الروح من خلال تأكيده على العلاقة الكبيرة والظاهرة بين الروح والبدن فيؤكد أن هذه العلاقة جعلت من الروح والبدن كيان واحد ولا يمكن الفصل بينهما, وبالتالي فإن الموت يعني نهاية كلا من الروح والبدن، فلا يمكن أن تنفصل الروح عن البدن التي كانت معه طيلة المراحل التي مرا بها معا، وبالتالي فالموت يعني نهاية كل من الروح والبدن معا، وبالتالي لا وجود لما يسمى بخلود الروح وبانتقاء صفة الخلود تنتفي معها فكرة الثواب والعقاب التي نصت عليها جل الأديان فلا حياة أخرى بعد الموت، فالموت إذن نهاية لهذه العلاقة ونهاية لطرفيها.

المطلب الثالث:المعجزات عند هيوم

بعد ما بينا في النقاط الماضية نظرة هيوم بالنسبة للدين والله ومسألة الروح نواصل عرض وجهة نظره حول الأمور الميتافيزيقية وكيف حكم عليها في فلسفته ,ومن بين هذه الأمور والقضايا قضية المعجزات، والمعجزة بوجه عام هي ما يخرج عن المألوف ويبعث على الإعجاب فيقال معجزة العلم، أما في علم الكلام فتعرف المعجزة على أنها أمر خارق للعادة[2]، مثل النبوة والوحي، أما المعجزة عند هيوم فهي: الأمر المخارق للطبيعة[3]، أي الأمر الذي يخرج عن قانون الطبيعة.

[1] المرجع السابق، صفحة 29

[2] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص193

[3] المرجع نفسه، صفحة نفسها

ينكـر هيـوم في كتابـاه مقالـة في المعجـزات وقـوع المعجـزة* علـى الـرغم مـن أنـه لا ينكـر إمكانهـا لأن إمكـان وقـوع المعجـزة الخارقـة نتيجـة طبيعيـة لمذهبـه الـذي ينكـر فيـه ضـرورة التتـابع السـببي بـين الأشـياء والحـوادث، فمـا دامـت الأشـياء لا تتـابع في نظـام معـين فمـن الجـائز إذن أن يحـدث في الطبيعـة أي شـيء دون أن يسـترعي ذلـك انتباهنـا أو يثـير دهشـتنا فهـو ينكـر وقـوع المعجـزة رغـم جوازهـا عقـلا، محتجـا بـأن التجربـة قـد دلـت علـى أن الكـون يسـير في نظـام معـين، فالعقـل أقـرب إلى قبـول اسـتمرار هـذا النظـام منـه إلى قبـول انكسـاره واضـطرابه[1]، فهيـوم ينفـي وقـوع المعجـزات ويعتـبر وقوعهـا خرقـا للقـانون ونظـام الطبيعـة لكنه يعترف بجوازها عقلا لا لشيء سوى لأنه يريد أن يؤكد على نسبية مبدأ السببية فقط.

ويقـدم هيـوم مجموعـة مـن لأدلـة الـتي ينفـي بهـا وقـوع المعجـزات كمـا يثبـت نسـبيتها في كتابـه تحقيـق في الـذهن البشـري الـذي خصـص فيـه مبحـث يـتكلم فيـه عـن المعجـزات والخـوارق، إذ اعتـبر المعجـزة اخـتراق لنـواميس الطبيعـة عـن طريـق قـوى خارقـة غيبيـة، ويعطينـا هيـوم مثـال فـيرى بـأن الديانـة المسـيحية مرجعيـة الكتـاب المقـدس أو النـاموس تسـتند فقـط إلى مرجعيـة الرسـل الـذين كـانوا شـهود عيـان لمعجـزات مخلصـنا الـتي أثبتـت رسـالته الالهيـة، لـذا فـإن البيئـة الـتي لـدينا لصـالح حقيقـة الـدين المسـيحي هـي أقـل مـن البيئـة الـتي في صـالح حقيقـة حواسـنا[2]، فهيـوم هنـا أراد أن يأكـد أن المعجـزة تقـوم علـى تـواتر الشـهادات، وأعطانـا مثـال بالـدين المسـيحي الـذي كـان مـع عيسـى المسـيح، حيـث رأى أن ديانتـه وصـلت إلى بـاقي البشـرية الـذين لم يشـاهدوه بفضـل شـهود العيـان وهـذا مـن شـأنه أن يجعـل المعجـزة معرضـة للتنـاقض أو ربمـا تطغـى عليهـا الذاتيـة فتتعـرض للتزييـف، لـذا اعتـبر هيـوم أن هـذه المعجـزات الـتي تعرفنـا عليهـا مـن خـلال تواترهـا هـي أقـل صـدقا ويقينـا ممـا تنقلـه إلينـا الحـواس مباشـرة، لـذا فهـذه المعجـزات تحمـل نسـبيتها بـين طياتهـا كمـا أن التجربـة عـاجزة عـن تفسـيرها، وهـذا لغيـاب أدنى شـروط التجربـة، لـذا فإنـه لا يمكـن لأحـد مـن البشـر أن يحـتفظ إزاء الشـهادات بعـض البشـر بتلـك الثقـة الـتي لديـه بموضـوع حواسـه المباشـر ومـا دامـت كـذلك فـإن

* meiracle حـدوث شـيء غـير مطـابق لنظـام الأشـيء المعروفـة والأشـياء الأكثـر شـيوعا لكلمـة معجـزة هـو للدلالـة علـى حـدث فـوق قـدرة البشـر ولا يخضـع لقـوانين الطبيعـة وهـذا الحـدث يكـون اسـتثنائيا وغـير متوقـع، وتتجـه دائـرة المعجـزات إلى الانحصـار مـع تقـدم العلـم وانتشـار التفكير العلمي والموضوعي (كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص567)

[1] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص245.

[2] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص145

بنيتـه أضـعف لا يمكنهـا أن تحطـم بنيـة أقـوى منهـا[1].أي لا يمكـن الوثـوق فيمـا لم تشـهده وصـادقت عليـه الحواس مباشرة.

فمـا دامـت التجربـة هـي دليلنـا الوحيـد في اسـتدلالنا حـول الواقـع فإنـه لا بـد لنـا مـن الاعـتراف بـأن هـذه الأدلـة علـى المعجـزات المتـواترة ليسـت معصـومة مـن الخطـأ تمـام العصـمة وهـذا مـا قـد يجرنـا إلى الخطـأ[2]، لـذا لا يمكن الوثوق في هذه الأدلة وبالتالي لا يمكن الإيمان بالمعجزات تمام الإيمان.

لـذا يمكـن القـول حسـب هيـوم أن هـذه المعجـزات لا يمكـن حـدوثها ولا يمكـن التصـديق بهـا اعتمـادا علـى قـول بعـض الـرواة الـذين تعرضـت رواياتهم لكـل مـا تتعـرض لـه الروايـة التاريخيـة مـن تحريـف عـبر عصـور كانـت تجهـل أدنى معرفـة بـالتوثيق والنقـد التـاريخيين، فضـلا عـن عـدم تـوفر شـروط النقـل الصـحيح في هـؤلاء الـرواة، تلـك الشـروط الـتي تـنص وتتضـمن صـحة التـواتر واليقـين، فلـم يكـن عـددهم كافيـا كمـا لم يكـون مـن المؤكـد اتصـافهم بالصـلاح والضـبط والقـدرة علـى التمييـز بـين الحقيقـة والخيـال[3]، أي لا يمكـن الوثـوق في أنـاس يفتقـرون للشـروط الأساسـية للقيـام بعمليـة نقـل المعـارف والأحـداث في زمـن عـرف بـالتفكير الأسـطوري والعقـل الخـرافي. لـذا نجـد هيـوم يقـر بـأن الخـوارق هـي مـن بـين المسـائل الـتي تلقـي انتشـارا كبـيرا بـين أوسـاط النـاس لتضـمنها أخبـارا مثـيرة وتنتشـر هـذه الخـوارق حسـب هيـوم خاصـة بـين الأمـم الجاهلـة والمتوحشـة، وإذا مـا تبناهـا شـعب متحضـر فإننـا سـنجد ذلـك الشـعب قـد تلقاهـا عـن أجـداد جهلـة ومتوحشـين[4]، لـذا فـإن إيمـان الشـعب بمـا تركـه لهـم أجـدادهم هـذا الإيمـان لا يخـرج عـن احـترام الشـعب لقدسية أجدادهم فقط.

كمـا يضـيف هيـوم دلـيلا آخـر حيـث يؤكـد أن الطبيعـة الإنسـانية في حقيقتهـا تنشـد وتعجـب بمـا تولـده هـذه المعجـزات مـن انفصـال وإعجـاب مـا يعطـي مـيلا واضـحا إلى تصـديق تلـك الأحـداث الـتي يصـدر عنهـا هـذا الانفعـال، حـتى أولئـك الـذين لا يسـتطيعون الالتـذاذ بـذلك الشـعور مباشـرة ولا يمكـنهم

---

[1] المصدر السابق، ص145

[2] المصدر نفسه، ص146.

[3] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا عند هيوم، ص31

[4] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص155

تصـديق تلـك الأحـداث والمعجـزات الـتي يخـبرونهم عنهـا، يحبـون رغـم ذلـك أن يشـاركوا غـيرهم لذتـه بالسـماع أو بـالخبر، وتـراهم فخـورين مبتهجـين بإثـارة إعجـاب الآخـرين[1]، وفي هـذا دليـل واضـح علـى ضـعف الطبيعـة الإنسـانية وتصـديقها لكـل مـا يشـاع وخاصـة الشـعوب القديمـة الـتي تنشـد وتـؤمن بكـل مـا هو خارق للعادة ويثير الانبهار.

لكـن في مقابـل ذلـك فـإن العقليـة العلميـة المتشـبعة بفيزيـاء نيـوتن تؤكـد انتظـام وإطـراد قـوانين الطبيعـة بصـورة لا تسـمح البتـة بوجـود ذلـك الاسـتثناء الـذي تقتضـيه حـدوث المعجـزات إزاء بعـض الروايـات التاريخيـة الـتي تقـص حـدوث المعجـزات[2]، أي أن كـل الحـوادث والمعجـزات التاريخيـة القديمـة تفتقـر لأساس علمي يكسبها قيمة الصدق واليقينية.

وهنـا يجـد هيـوم نفسـه أمـام أمـرين إمـا أن يشـك في أقـوال الـرواة الـذين لم يقـم لهـم دليـل علـى صـدقهم ولا يوجـد مـانع في أن يكونـوا قـد انخـدعوا أو شـبه لهـم أو أن يـؤمن بـأن قـوانين الطبيعـة قـد انخرقـت، ويـرى هيـوم أن الأمـر الجـدير بـالرفض هـو أكثـر هـذين الامـرين إعجـازا، أمـا أقلهـم إعجـازا فهـو الأقـرب إلى الإعتقـاد السـليم، ومـن الصـعب علـى الفيلسـوف مثـل هيـوم يـؤمن بفزيـاء نيـوتن أن يـرى في انخـراق قـوانين الطبيعـة أقـل إعجـازا مـن انخـداع الـرواة ومـن ثمـة فإنـه مـن الصـعب عليـه أن يقبـل القـول بـالمعجزات[3]، ولأن إيمـان هيـوم بفزيـاء نيـوتن والمـنهج التجـريبي إيمانـا مطلـق فهـو يـرفض كـل مـا يمـس قـوانين الطبيعـة والفزيـاء الدقيقـة واليقينيـة، وكـون أن المعجـزات تثبـت مصـداقيتها علـى حسـاب فتـور وخلـل في نظام قوانين الطبيعة، فإنه من المستحيل على هيوم أن يتقبلها ويؤمن بها.

ويواصـل هيـوم انتقاداتـه للمعجـزات في فقـرات مـن أشـهرها "مـا مـن شـهادة تكفـي لإثبـات معجـزة إلا إذا كانـت الشـهادة مـن نـوع يكـون فيـه كـذبها أكثـر إعجـازا مـن الواقعـة الـتي تحـاول إثباتهـا... فـإذا أنبـأني إنسـان بأنـه رأى ميتـا يبعـث، سـألت نفسـي للتـو أيهمـا أكثـر احتمـالا: أن يكـون هـذا الشـخص خـداعا أو مخـدوعا، أو أن الواقعـة الـتي يرويهـا وقعـت فعـلا. فـأوازن بـين المعجـزتين طبقـا لرجحـان إحـداهما... أرفـض

[1] المصدر السابق، ص ص153، 154.

[2] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص31.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

المعجـزة الأكـذب"[1]، أقـر هيـوم مـن خـلال هـذا القـول أنـه ينفـي بكـل صـراحة أي معجـزة أو أي أمـر خـارق للعـادة ويعطـي مثـال هنـا بالميـت الـذي يعـود للحيـاة وبطبيعـة الحـال فـإن قـانون الطبيعـة والعـادة والخـبرة الإنسـانية تؤكـد علـى أن هـذا الامـر غـير ممكـن عقليـا ولا يمكـن الإيمـان بـه لأنـه خـرج عـن العـادة والمـألوف ومـن الأرجـح التشـكيك فيـه، ومـا دام فيـه شـك وريـب فـذاك دليـل علـى نسـبيته وبالتـالي يبقـى في خانة الرفض والبطلان.

بالإضـافة إلى كـل مـا سـبق فـإن هيـوم ينتقـد العبـادات الدينيـة الـتي يخـتص بهـا ديـن التوحيـد –كـون أن المعجـزات مـن الأساسـيات في ديـن التوحيـد- لأنـه ينبـع عنهـا بـرودة وخمـول القلـب وشـيوع عـادة النفـاق والريـاء، بـل يعتقـد هيـوم أن العبـادات الـتي تنطـوي علـى ثنـاء الـذات الإلهيـة تنـزل بقيمـة الألوهيـة لأن تصـور الإلـه علـى أنـه يشـتاق إلى الحمـد والثنـاء يعـني أنـه ذو عاطفـة بشـرية، وأيـة عاطفـة؟ إنهـا عاطفـة مـن أدنى العواطـف البشـرية عاطفـة الرغبـة في ثنـاء الآخـرين[2]، وهنـا يستحضـر هيـوم ويسـتدل بقـول سـينيكا: "أن تعـرف الله هـو أن تعبـده، وكـل عبـادة أخـرى باطلـة خرافيـة لا تقـوى فيهـا فهـي تهـبط بـه إلى حالـة البشـر الـدنيا هـؤلاء الـذين ينتشـون بالتوسـل والاسـترحام والهـدايا والتملـق، وأ، عـدم التقـوى هـذه لهـي أقـل مـا تـدان به الخرافة، والشائع أنها تهبط بالله هبوطا إلى حالة البشر"[3].

ومـن خـلال هـذا يتضـح أن هيـوم يـرفض ديـن التوحيـد بكـل مـا فيـه وبكـل دلائلـه بمـا فيهـا المعجـزات معتـبرا أن شـعائره لا تـتلاءم مـع طبيعـة الإلـه كمـا أنهـا تـنقص وتنـزل مـن قيمتـه مؤكـدا في الوقـت ذاتـه علـى الـدين الطبيعـي, معتـبرا إيـاه الـدين الـذي يعلـي مـن قيمـة الإلـه وفيـه تحـترم قدسـيته وهـو الـدين الـذي يـتلاءم مـع الطبيعـة الإنسـانية، بالإضـافة إلى هـذا فإنـه لا يوجـد دليـل كـاف علـى إثبـات وقـوع المعجـزة إلا ذلـك الـدليل الـذي إذا أثبـت بهتانـه كـان في حـد ذاتـه أكثـر إعجـازا مـن الحادثـة الـتي يحـاول إثباتهـا، ويبطـل هيـوم أي دليـل علـى وجـود المعجـزات مـن خـلال اعتبـار أن أي دليـل يسـعى لإثباتهـا سـيكون هـو ذاتـه بمثابـة معجـزة ويحتـاج إلى دليـل لإثباتـه وبالتـالي لا وجـود للمعجـزات ولا لـدلائل علـى

[1] نقلا عن: المرجع السابق، ص32

[2] المرجع نفسه، ص21

[3] دفيد هيوم، محاورات في الدين الطبيعي، ص159

وجودهـا.ولنفترض أن كـل المـؤرخين الـذين يكتبـون عـن انجلـترا اتفقـوا علـى أن الملكـة إليزابيـث ماتـت وأنهـا بعـد أ ن دفنـت شـهر عـادت إلى عرشـها وحكمـت انجلـترا لـثلاث سـنوات أخـرى"[1]، لا أسـتطيع أمـا مثـل هـذا اقـول أن أشـك في حـادث عودتهـا المزعـوم وفي تلـك الظـروف العامـة الأخـرى الـتي اعقبتـه، غبـير أني أؤكـد بـلا شـك أن موتهـا هـذا كـان أمـرا مزعومـا، وأنـه لم يقـع ولا يمكـن أن يكـون حقيقيـا[2]، فـالأقرب إلى التصـديق هنـا هـو انخـداع النـاس وهـذا أمـر مقبـول عكـس أن نقـول أن قـوانين الطبيعـة المحافظـة علـى انتظامها قد خرقت.

لتبقـى المعجـزة أمـرا ممكنـا عقليـا علـى حـد قـول هيـوم ولكنهـا غـير قابلـة للبرهنـة ولا يمكـن إثبـات أحقيتهـا بالأدلـة ومـا دام الإنسـان يعتمـد علـى التجربـة فـيس سـعيه وبحثـه علـى الحقيقـة والمعرفـة، فـإن المعجـزة تبقـى محـل شـك وريـب ومـا دامـت هكـذا لا يمكـن إثباتهـا بـدليل إلا مـن خـلال إدعـاء شـهادات بعـض الناس.لـذا فـإن حقيقتهـا ومعيـار صـدقها يبقـى مرهونـا بمـدى صـدق وأمانـة مـن قـاموا بروايتهـا ولكـن يبقـى السـؤال مطروحـا: إذا كانـت شـهادات وأدلـة إثبـات وجـود المعجـزات الـتي وصـلت بـالتواتر لا يمكـن الإيمـان والأخـذ بهـا، فكيـف يمكـن الإيمـان بالأدلـة الـتي تنفـي وجودهـا مـع العلـم بـأن كـل الأدلـة سـواء الداعمة أو المناقضة للمعجزات قد وصلت إلينا بالتواتر؟

[1] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص168

[2] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص33

المبحث الثالث:العلية عند هيوم

تعتبر مسألة العلية أو السببية من أقدم المسائل في عالم افكر والوجود، بحيث تعود جذورها إلى العصر اليوناني مع أفلاطون وأرسطو, أما في العصر الحديث فقد شهدت اختلافا كبيرا خاصة في جوازها من عدمه ومصدرها وتفسيرها حتى في تعريفها فنجده يختلف خاصة إذا انتقلنا من مجال إلى مجال، وكون أن بحثنا يقتضي الحديث عن العلية من منظور دفيد هيوم سنحاول التركيز على أهم آراءه حول هذا المبدأ مع التعريج على بعض الفلاسفة تماشيا مع الظهور الزماني لها، ولهذا نتساءل يا ترى: هل يجوز القول بمبدأ العلية؟ وإلى ماذا تعود الأصول الأولى لظهور هذا المبدأ؟ وكيف كانت وجهة نظر الفلاسفة تجاه مبدأ السببية؟ وهل كانت محل اتفاق أم اختلاف حول الإيمان والتفسير بها؟

المطلب الأول:مفهوم العلية:

أ-المعنى الإشتقاقي:

في اللغة الفرنسية العلية cause ومصدرها هو caver فالمعنى القديم للكلمة حقوقي، غير أن الإغريق تصوروا الفعل الحقوقي من زاوية الإعلال أو التعليل (الادعاء أو إقامة دعوى)، ونظر اللاتينيون إليها من زاوية الدفاع ,وفي الالمانية يبدو أن أصل sache حقوقي أيضا، وترتبط العلية بالسبب، عندما يقال (أ) علة (ب) إنما يراد القول إن وجود (أ) سبب (ب)[1]، والسبب مرادف للعلة إلا أن النظار يفرقون بينها من وجهتين: أحدهما أن السبب ما يجعل الشيء عنده لا به والعلة ما يحصل به، والثاني أن المعلول ينشأ بواسطة أو بوسائط، والسببية إذن هي العلاقة بين السبب والمسبب ومبدأ السببية principe.de.causalitè أحد مبادئ العقل ويعبرون عنه بقولهم لكل ظاهرة سبب[2]

[1] أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، ج1، ص154

[2] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص ص648، 649.

ب- المعنى الاصطلاحي:

السبب في اصطلاح الفلاسفة ,ثلاث معان على حسب المجال الذي يستعمل فيه ففي علم النفس السبب هو العامل في وجود الشيء، ويطلق على كل حالة نفسية شعورية كانت أو غير شعورية[1]، فالسبب هنا بمعنى العلة أو مجموعة الأسباب التي تتحكم في السلوك، والسبب عند الفلاسفة هو المبدأ الذي يفسر الشيء تفسيرا نظريا، وهو ما يتوصل به إلى غيره أو هو ما يحتاج إليه في ماهيته ووجوده، ونلاحظ في تعريف الفلاسفة للسبب أن مدلولها قد ربط بالماهية والوجود ولذا ربط بالتفسير النظري ولهذا سمي سبب عقلي، أما السبب عند علماء الأخلاق هو ما يفضي إلى الفعل ويبرره وهو مرادف للحق[2]

ويجب القول أن مفهوم العلية أو السببية لا يلقى تعريفه الإجماع في الوسط الفلسفي فنجد أن الفلاسفة والعلماء لا يتفقون على مفهوم واضح وصريح له، وهذا ما يترك المجال مفتوحا امام الإختلاف، ليبقى مفهوم العلية إشكالية ابستيمولوجية نفرق بها بين الفلاسفة والعلماء، ويكفي القول أن مفهوم السببية ومعناها يكون على حسب المجالات المستخدمة فيها فاستعمالها في ميدان الأخلاق غير استعمالها في ميدان الفلسفة وكذلك استعمالها في ميدان علم النفس يختلف عن استعمالها في ميدان علم الاجتماع، وهذا الاختلاف مفيد لأن التضاد يقود إلى الطريق الصحيح للمعرفة كما يؤكد هيجل بأن الفكرة تقتضي وجود نقيضها وهذا ما يؤدي إلى بزوغ فكرة جديدة حديثة وهذا الاختلاف يؤكد المضى في الطريق الصحيح للمعرفة.

المطلب الثاني:تصور الفلاسفة للعلية قديما وحديثا

لقد تدبر الفلاسفة باختلاف أزمنتهم واقع العلية وحاولوا فهمها وتفسيرها من أجل إعطاء نتائج مثمرة في ميدان البحث العلمي، للاطلاع أكثر على هذا الموضوع سنحاول تتبع أراء الفلاسفة والمفكرين حول مسألة العلية.

---

[1] المرجع السابق، ص648

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

1_العلية عند الفلاسفة السابقين على هيوم:

ويمكـن القـول أن "أرسـطو" أول مـن اهـتم اهتمامـا خاصـا بالعليـة، حيـث كـان يـرى ان هـدف البحـث العلمـي هـو البحـث عـن الـروابط للعليـة بـين الأشـياء لأنـه كـان يعتقـد أن المعرفـة الحقـة إنمـا هـي دائمـا معرفـة العلـل[1]، حيـث فصـل القـول في طبيعـة العلـل وأنواعهـا وضـرورتها ولهـذا أكـد علـى أربعـة أنـواع مـن العلـل هـي العلـة الماديـة، العلـة الصـورية، العلـة الفاعلـة، والعلـة الغائيـة[2]، والعلـة الفاعلـة هـي كـأن نقـول أن النجـار صـانع الكرسـي أي النجـار هـو مـن قـام بفعـل الصـنع ,أمـا العلـة الماديـة فكـأن نقـول الخشـب الـذي صـنع منـه الكرسـي، والعلـة الصـورية هـي الهيئـة الـتي تم صـنعه علـى شـكلها، أي المظهـر الخـارجي الـذي يظهـر بـه الكرسـي للعيـان أمـا العلـة الغائيـة فهـي الغايـة مـن وراء الصـنع: هـي الجلـوس عليـه، وسـادت هذه النظرية حتى نهاية العصور الوسطى[3].

ويجـب الاشـارة إلى أن أرسـطو لـيس الوحيـد الـذي تكلـم عـن العليـة إذ نجـد قبلـه أفلاطـون في محـاورة "مينـون" عمـا أطلـق عليـه اسـم الاسـتدلال بواسـطة العلـة وقـال لكـي نحـول مـدركاتنا إلى نتـائج علميـة فعلينـا أولا أن نثبتهـا أي نمنعهـا مـن التسـرب مـن ذاكرتنـا، وتنبـه أفلاطـون إلى مـا أصـبح يسـمى فيمـا بعـد بالعلـة الصـورية، كمـا عـنى أيضـا بالعلـة الفاعلـة وفـرق بـين العلـة بمعناهـا الصـحيح والعلـة العارضـة الـتي هـي مجـرد عامـل مسـاعد للعلـة[4]، ويمكـن القـول أن أفلاطـون قـد عـرف مسـألة العليـة وأشـار إليهـا وقـام بتحديـد أنواعها قبل أرسطو.

ويجـب القـول أنـه خـلال العصـور الوسـطى قـد سـاد التصـور الأرسـطي، إلا أن هـذا التصـور بـدأ يختفـي مـع ظهـور التقـدم العلمـي في القـرن السـادس عشـر، أو نقـول بـدأ يتخـذ أشـكالا تتماشـى مـع التقـدم

[1] محمود فهمي زيدان، الاستقراء والمنهج العلمي، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، 1977، ص78

[2] عبد الزهرة بندر، منهج الاستقراء في الفكر الاسلامي –أصوله وتطوره–، دار الحكمة للطباعة والنشر، مصر، ط1، 1992، 206

[3] إبراهيم مصطفى إبراهيم، منطق الاستقراء، جلال حزي وشركائه للنشر، الاسكندرية، 1999، ص113

[4] المرجع نفسه، ص116.

الـذي أحرزتـه البشـرية[1]، وكـان للقـديس تومـا الإكـويني دور كبـير في شـيوع الفكـر الأرسـطي بمـا في ذلـك فكرة العلية في العصور الوسطى وهذا لأنه يعتبر من بين الشارحين والمتأثرين بأرسطو.

أمـا موقـف المفكـرين المسـلمين فقـد تباينـت أسـاليب نظـرهم فيهـا فهمنـاك مـن نظـر إليهـا باعتبارهـا العلاقـة بـين الأشـياء لا العليـة بمعناهـا العقلـي، أي المبـدأ ومـن هنـا أدرك بعـض مفكـري العـرب بـاختلاف مبـدأ السـببية عـن القواعـد أو المبـادئ المنطقيـة الضـرورية[2]، أي أن المسـلمين ميـزوا بـين العليـة باعتبارهـا علاقـة بـين الأشـياء قائمـة علـى السـبب والمسـبب، وبـين العلـة أو المبـدأ العقلـي الـذي يقـوم علـى أن العقـل أو المعـارف القبليـة هـي مـن تفسـر العلاقـة بـين الأشـياء وبـذلك ميـز المسـلمون بـين العليـة باعتبارهـا مبـدأ عقلـي وبـين العليـة بمفهومهـا التجـريبي، والفـرق بـين المفهـومين هـو ان المفهـوم العقلـي يخـتص بـالعلوم الصـورية والـتي ينطبـق فيهـا الفكـر مـع نفسـه، أي أن العلاقـة في المفهـوم العقلـي بـين مفهـومين مـن المفـاهيم الـتي تحـدث في الطبيعـة كـأن نقـول مـثلا (س) و (ص) يجعـل وجـود أحـدهما ضـروري عنـد وجـود الآخـر، فـالأول هـو المسـبب والثـاني هـو السـبب، امـا السـببية بـالمفهوم التجـريبي هـي ان كـل (س) يعقبهـا (ص) بصـورة مطـردة دون أن يعـترض في هـذا الاطـراد أي ضـرورة[3]، والمفهـوم التجـريبي هنـا يخـص العلـوم التجريبية التي ينطبق فيها الفكر مع الواقع.

ومـا يجـب الإشـارة إليـه في الفكـر الإسـلامي أن جـل مفكريـه قـد تـأثروا بـالفكر الأرسـطي، فنجـد كـل مـن الفـارابي والكنـدي وابـن سـينا قـد وافقـوا أرسـطو في تقسـيمه للعليـة فكلهـم قـد قبلـوا العلـل الاربعـة الطبيعيـة الأرسـطية لكـنهم اختلفـوا معـه فقـط في الغايـة مـن اعـترافهم بالعلـل ,فقـد كـان هـدفهم هـو الصـعود إلى الله أي الوصـول مـن خـلال هـذه العلـل إلى الله، لهـذا نجـد بعـض الاخـتلاف في تطبـيقهم لمسـألة العليـة[4]، ومـن خـلال هـذا يتجلـى التـأثير الكبـير لأرسـطو في الفكـر الإسـلامي حيـث لا نجـد اخـتلاف فكـري بـين أفكـاره وبـين أفكـار الفلاسـفة المسـلمين، مـا عـدا في بعـض الأمـور وهـذا بطبيعـة الحـال راجـع

[1] المرجع السابق، ص117.

[2] عبد الزهرة البندر، منهج الاستقراء في الفكر الاسلامي، ص 208.

[3] محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، دار التعارف للمطبوعات ,بيروت, ط5, 1986ص235

[4] محمد عبد الله شرقاوي، الأسباب والمسببات، دار الجبل، بيروت، ط1، 1997، ص 78-81

لاختلاف الغايات طبعا. فنجد مثلا أن الكندي قد قبل العلل الأرسطية لكنه قد صعد بالعلة الفاعلة في المجال الميتافيزيقي إلى الله، كذلك فعل المعلم الثاني أبو نصر الفارابي، فقد طبق العلة الفاعلة على العلة الأولى، وهنا خالف المعلم الثاني المعلم الاول في نظرية العلية أو السببية، وهذاما ذهب إليه المستشرق "ديبور" إذ لاحظ أن تراث الفارابي لا يحتوي على أي بحث خاص قائم برأسه في العلل الأربعة، وأن هم الفارابي كان متجها إلى رد كل العلل إلى الله، من حيث أن هو علة العلل الأولى والعلة الأولى والأخيرة[1].

وهنا يكمن الاختلاف فقط بين أرسطو والمفكرين الإسلاميين كون أن غايتهم كانت إثبات أن الله هو العلة الأولى لكل شيء, أما أرسطو فقد كانت غايته توجيه الفكر وإثراءه ولعل الشيء الذي يجب التأكيد عليه عند الفلاسفة المسلمين هو رفضهم لفكرة الضرورة في مسألة العلية فنجد الفارابي يقول: "قد يظن بالأفعال والآثار الطبيعية أنها ضرورية، كالاحتراق في النار والترطيب في الماء، والتبريد في الثلج، وليس الأمر كذلك لكنها ممكنة على الأكثر، لأجل أن الفعل إنما يحصل بإجماع معنيين، إحداهما تهيىء الفاعل للتأثير والآخر تهيىء المنفعل للقبول فطالما لم يجتمع هذين المعنيين لم يجعل فعلا وأثرا البتة، كما ان النار ولو كانت محرقة فإنها لم تجد متهيأ للإحراق[2]، وبهذا القول ينفي الفارابي الضرورة في مسألة العلية لأنه حسبه لا ضرورة بين النار والإحراق لأن النار حتى وإن لم تجد متهيأ للإحراق فستظل محرقة ولا يجب أن تكون هناك ضرورة بين النار والمتهيأ للإحراق.

أما الإمام الغزالي فقد نقد فكرة الضرورية التي نادى بها الفلاسفة في فكرة السببية فيقول: "... حكمهم –يقصد الفلاسفة- بأن هذا الاقتران المشاهد في الوجود بين الأسباب والمسببات، اقتران تلازم بالضرورة... فليس في المقدور، ولا في الإمكان، إيجاد السبب دون المسبب، ولا وجود للمسبب دون السبب"[3]، ومن خلال هذا القول نجد أن الغزالي قد اعترف بنظرية السببية وبالارتباط بين الأشياء في عالم التجربة والظواهر، إلا أن ما يرفضه الغزالي هو زعم الفلاسفة أن هذه الترابطات

[1] المرجع السابق، ص ص80، 81.

[2] عبد الزهرة البندر، منهج الاستقراء في الفكر الإسلامي، ص 208.

[3] نقلا عن: محمد عبد الله الشرقاوي، الأسباب والمسببات، ص 128

ضـرورية، فـإذا وجـد السـبب وجـد المسـبب لا محالـة كـذلك العكـس، وأن هـذا الـترابط حتمـي ولـيس كمجرد ترابط وهذا ما نقده الإمام الغزالي.

وفي السـياق نفسـه إذا كانـت السـببية لـدى الفلاسـفة ضـرورية وكـان الله يفعـل كسـبب طبيعـي، فـإن الله نفسـه خاضـع لقواعـد تتجـاوزه هـذا مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى إذا كانـت حتميـة الفلاسـفة صـادقة في السـببية فـلا مكـان إذن للمعجـزات، إذ يقـول الغـزالي: "إنمـا يلـزم النـزاع في الأولى مـن حيـث أنـه ينبـني عليهـا إثبـات المعجـزات الخارقـة للعـادة، مـن قلـب العصـا ثعبانـا، ومـن جعـل مجـاري العـادات لازمـة لزومـا ضـروريا، أحـال جميـع ذلـك"[1]، فـالغزالي مـن وراء هـذا النقـد أراد أن يثبـت مـا جـاء في عقيدتـه مثلـه مثل الفارابي.

ويواصـل الغـزالي نقـد للفلاسـفة، فـإذا كـان كـل مـا في العـالم ضـروريا في تعيناتـه وفي وجـوده فالعـالم إذن يفسـر بذاتـه ولا حاجـة لنـا لله[2]، إلا أن الغـزالي وفي مقابـل نفيـه للضـرورة اعـترف بمـا يسـمى بالعـادة وفسـر بهـا هـذا الـتلازم بـين الظـواهر، وأخـيرا ومـا يمكـن قولـه عـن تصـور الغـزالي عـن مشـكلة السـببية، أنـه قـد رفـض الضـرورة واسـتبدلها بالعـادة في الارتبـاط النسـبي ويضـيف لهمـا رابطـة ثالثـة وهـي رابطـة الإرادة فـالإرادة بالنسـبة لله تعـالى والضـرورة بالنسـبة لعلـوم التحليليـة الصـورية كـالمنطق والرياضـيات، والعـادة بالنسـبة للعلـوم التجريبيـة والطبيعيـة[3]، وهـذا الموقـف للإمـام الغـزالي نجـده عنـد دفيـد هيـوم الـذي نحـن بصـدد دراسـته، إلا أن هذا الموقف قد طوره أكثر.

2_تصور الفلاسفة للعلية في العصر الحديث:

لقـد حـدث تطـور كبـير بـل نقـل طفـرة هائلـة عنـدما أتـى القـرن السـابع عشـر في موضـوع العليـة فوجـد أن مفكـروه بـدأوا يتركـون العليتـين الغائيـة والماديـة، وقصـر ديكـارت العلـة الغائيـة علـى فكـرة الله تعـالى، ولم يتبقـى سـوى علتـين همـا: الصـورية والفاعليـة وهمـا متحـدتان عنـده، وقـد نظـر ديكـارت إلى كلمـة

[1] نقلا عن: المرجع السابق، ص 129

[2] نقلا عن: المرجع نفسه، ص131.

[3] نقلا عن: محمد عبد الله الشرقاوي، الاسباب والمسببات، ص153

علة كشيء مساوي لكلمة سبب[1]، ويعتبر ديكارت أبو الفلسفة الحديثة حيث امتد تأثير فكره ليشمل العديد من المفكرين الذين ساروا على نهجه ودافعوا عن فكره، وقارن سبينوزا علاقة العلة والمعلول بالعلاقة بين طبيعة المثلث وصفاته، ورأى ليبنتز أن فكرة العلل مأخوذة عن الأسباب التي تذكر في تفسير الظواهر[2]، ومن خلال هذا ظهر عنده مبدأ السبب الكافي الذي أسس عليه مذهب الذرات الروحية أو المونادات.

أما فلاسفة المذهب التجريبي فنجد أن فرانسيس بيكون قد أبقى على العلة الصورية من عصر أرسطو فقط، واستبعد العلل الثلاث الأخرى لعدم فائدتها للعلم حيث أنها علل متغيرة أي غير ثابتة، بينما جون لوك فقد قدم تفسيرا تجريبيا للعلية، بينما عرف جون ستيوارت مل العلية على أنها السابق الثابت غير المشروط للمعلول، كما عرفها بأنها جملة شروط مجتمعة، بينما جعلها كل من أرنست ماخ وبرتراند راسل مساوية للدالة الرياضية، إذ يتخذ راسل موقف وسط عندما يعتبر أن طائفة من الحوادث القائمة يرتبط ارتباطا عليا بطائفة أخرى في زمن آخر وليس بأي حوادث أخرى منفردة في ذلك الزمن الآخر[3].

أما دفيد هيوم فقد عرف معه مفهوم السببية منعرجا ابستيمولوجيا، حيث يجد الملاحظ لتفسيره لمبدأ العلية أنه من جهته مفسرا لها ويربطها بالمنهج التجريبي ويرى بأنه لا يمكن تفسيرها خارجه، ومن جهة أخرى يبدو كمهدم كونه ينفي أن تكون ذات مصدر عقلي ولا حتى تجريبي، وهذا ما يجعل التساؤل يبقى مطروحا حول المنعرج الذي عرفته مسألة العلية مع دفيد هيوم.

المطلب الثالث:تفسير العلية عند هيوم

يشتق موقف هيوم من العالم الخارجي من موقفه حول مصادر المعرفة ونظريته في العلية، فحين نتساءل عن علة انطباعاتنا وأفكارنا لم يرضى عن جواب لوك بأن العلة هي الاشياء المادية وجواب "باركلي" بأن العلة هي الله تعالى، لأن هيوم يرى أننا عاجزون بقدرتنا الإنسانية المحدودة عن الوصول

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، منطق الاستقراء، ص118.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[3] المرجع نفسه، ص119

إلى معرفة مصدر انطباعاتنا، لأننا إذا قلنا ذلك فإننا سنخرج عن مبدئنا التجريبي الذي يرى أن معرفتنا كلها مشتقة من انطباعات وأفكار ولسنا نعرف الأشياء إلا عن طريق هذين المبدأين، ويمكننا فقط القول بأن انطباعا ما علة لفكرة ما وأن فكرة ما علة لانطباع آخر، ومن ثمة فإن معرفتنا للعلية محدودة بأفكار[1]، يرى هيوم أن مبدأ العلية لا يمكن تفسيره خارج المنهج التجريبي الذي يرد كل شيء إلى الانطباعات والأفكار ولا وجود لسبب آخر، لذا فإن موقف هيوم من العلية مشتق من مصادر المعرفة التي اعتبر علتها الوحيدة مبدأ الانطباعات والأفكار ولا يمكن تفسير أي ظاهرة في العالم الخارجي دون هذين المبدأين.

1- نقد التفسير العقلي للعلية:

يرى هيوم أن علاقة العلية لا تنشأ عن التفكير العقلي المحض لأن عملية إدراك العلاقة بين السبب والمسبب لا تدرك عقليا ويعطينا هنا مثال فيقول: "إن سماعنا في الظلمة تركيبا صوتيا وكلاما معقولا ليؤكد لنا وجود شخص ما، لماذا؟ لأن هذا التركيب الصوتي والكلام المعقول هي آثار بنية الإنسان والآلة التي له، ولو شرحنا جميع الاستدلالات التي من هذا القبيل لوجدنا انها قائمة على علاقة السبب والمفعول، وأن هذه العلاقة مهما كان نوعها يمكن أن نستنتج أحدهما من الآخر ولكن إدراكنا لهذه العلاقة لا يحصل بأي حال من الأحول بواسطة استدلالات قبلية وإنما هي تنشأ كلية عن التجربة"[2]، ومن خلال هذا يتضح جليا أن هيوم يؤكد على استحالة تفسير العلاقة بين السبب والمسبب من خلال العقل او بالاعتماد على استدلالات قبلية بل أن السبيل الوحيد لإدراك هذه العلاقة هي التجربة، لأن الإنسان مهما ما اوتي من قدرات عقلية فائقة فإنه إذا ما كان الشيء جديدا عليه تماما والموضوع مترابط فيما بينه ترابطا متواترا لا يمكن أن يعرف أسبابه. ويواصل هيوم فيؤكد أن الأسباب والمفاعيل لا تكتشف بالعقل وإنما بالتجربة وهذه القضية سيكون من السهل أن يسلم بها

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص337.

[2] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص ص53، 54.

لأن الأحداث التي تكون بعيدة الشبه بما يجري عامة في الطبيعة لا تعرف إلا بالتجربة فلا أحد يتخيل ان انفجار البارود أو جاذبية حجر المغناطيس يمكنهما أن يكتشفا بواسطة حجج قبلية[1]

فالتجربة إذن هنا حسب هيوم ضرورية لأن القدرات العقلية لا تستطيع تفسير أمر جديد عليها لأنها بحاجة إلى الخبرة والخبرة لا تكون إلا بالتجربة، لذا يجب الإشارة إلى أن الاتجاه العقلي يريد أن يصبغ العلية بطابع عقلي محض بعيد عن كل تجربة وهذا أمر مستحيل حسب هيوم لأنه لا يوجد شيء في الذهن ما لم يوجد من قبل في الواقع، لذا فإن القول بالتفسير العقلي لمبدأ العلية حسب هيوم تفسير باطل مهما كانت كمالية القدرات العقلية لأنها تبقى عاجزة من دون تجربة التي تمنحها صفة الإدراك من خلال ما تكسب الذهن أو العقل من معارف يجعل منها خبرات تعينه على الفهم.

2- نقد التفسير التجريبي للعلية:

لقد عرفنا سابقا أن العلية قد اكتسبت لدى العقليين الضرورة المنطقية، وهذا يعني أنها مبدأ قبلي غير خاضع للتجربة في حين فهمها الاتجاه التجريبي لكونها ذات ضرورة تجريبية أو نفسية لا أكثر، وهذا ما سعى دفيد هيوم إلى تأكيده من خلال مناقشته للفكرة، ... فلقد رفض أن العلية مبدأ فطري أو تصور قبلي في العقل الإنساني، وأعلن أن مبدا العلية يستمد قوته من الخبرة الإنسانية... وعليه فإن العلم بالعلية ناتج عن الرابطة السببية المستمدة من الخبرة الحسية بين الأشياء[2]، فالخبرة أساس كل تفسير لمبدأ العلية وهي لا تنشا إلا انطلاقا من الانطباعات التي تتلقاها من العالم الخارجي بفضل الحواس وما تمليه على الذهن، ورغم تأكيد هيوم على أن علاقة العلية لا يمكن استنتاجها عقليا إلا أنه أكد في الوقت نفسه عدم امكانية الاستدلال عليها بالتجربة وعجز الخبرة الحسية عن إثباتها لأن معلوماتنا عن العالم الخارجي التي نستمدها من الخبرة الحسية والتجربة تنشأ من الانطباعات التي نتلقاها من العالم البراني، وإذا فحصنا انطباعاتنا عن هذا العالم (الخارجي) لا نجد فيها انطباعا عن العلية

[1] المصدر السابق، ص54.

[2] عبد الزهرة البندر، منهج الاستقراء في الفكر الإسلامي، ص220.

بـالمعنى الـذي يشـتمل علـى الضـرورة وحتميـة الارتبـاط بـين الحـادثتين، ومهمـا تلفتنـا حولنـا لا نجـد مـا يكشف لنا عن رابطة ضرورية بين السبب ومسببه[1].

رغـم الثقـة الكبـيرة لهيـوم في التجربـة والخـبرة الحسـية إلا أأن هـذا لم يمنعـه مـن التأكيـد علـى أن التجربـة لا يمكـن أن تـدل علـى علاقـات العليـة ولا أن تثبتهـا لأن الحـواس الـتي تكسـب الـذهن الخـبرة لا يمكـن أن تـدلنا علـى الصـفة الـتي تـربط المعلـول بعلتـه، ليعطينـا هيـوم هنـا مثـالا يثبـت بـه عجـز الحـواس علـى الكشـف عـن السـبب والمسـبب بصـفة واضـحة وجليـة، ويمكـن الكشـف علـى هـذا مـن خـلال ملاحظـة مـا يحـدث علـى سـطح مسـتوي، فنـرى أن كـرة البليـاردو المتحركـة إذا مـا صـدمت كـرة أخـرى كانـت سـاكنة، فـإن هـذه الثانيـة تتحـرك كـذلك، إن الـذي ينطبـع علـى حواسـنا الظـاهرة هـو: كـرة أولى تتحـرك، وكـرة ثانيـة تعقبهـا في الحركـة[2]، أي أن هيـوم أراد أن يثبـت أن الحـواس لا تعـبر عـن هـذه العلاقـة ولا تنقلهـا مباشـرة إلى الـذهن فمـا تنقلـه هـو مجـرد عمليـة اصـطدام وتحـرك فقـط، ولكـن حكمنـا علـى أن كـرة تحـرك كـرة وأن الكـرة A سـبب في تحريـك الكـرة B نـاتج عـن مبـدا يجعلنـا نسـتنتج أن A حركـة B وهـو مبـدأ العـادة أو الإلـف، ذلـك أنـه كلمـا نـتج عـن تكـرر فعـل مخصـوص أو عمليـة مخصوصـة نميـل مباشـرة إلى الميـل الـذي يقـول بمبـدأ السببية[3]، فالعادة والتعود على هذه الحركة هو ما يجعلنا نربط بين الحركتين بما يسمى مبدأ السببية فقط.

فعنـدما نصـرح بـأن موضـوعين اثنـين كـالحرارة واللهـب مـثلا إذا تـواتر اقترانهمـا، حملتنـا العـادة وحـدها علـى أن نتوقـع حـدوث أحـدهما مـن ظهـور الآخـر[4]، ولكـن الحـواس بمجملهـا لا تعرفنـا مباشـرة عـن علاقـة ضـرورية بـين الظـاهرتين ولكـن تكـرار هـذه الظـاهرة أمـام هـذه الحـواس جعلتنـا نـربط بـين الحـادثتين، ويواصـل هيـوم إثبـات عجـز الخـبرة الحسـية علـى تفسـير العليـة فيـذهب إلى أننـا لـن نجـد أبـدا صـفة تنطبـع بهـا حواسـنا وتكـون هـي الصـفة الـتي تـربط المعلـول بعلتـه ربطـا يجعـل ذلـك المعلـول نتيجـة محتومـة لعلتـه، إن كـل

[1] محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، ص105

[2] المرجع نفسه، ص10

[3] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص72

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها

مـا نـراه في العـالم الخـارجي هـو أن النتيجـة تتبـع سـببها فعـلا[1]، وكوننـا نتعـود علـى ذلـك نصـير نـربط بـين الحـادثتين مـن دون أي دليـل او اسـتدلال يقيـني ثابـت، وهكـذا ينتهـي هيـوم إلى رفـض التسـليم بعلاقـة العلية كحقيقة موضوعية إذ لا سبيل إلى إثباتها لا عقليا ولا تجريبيا.

3- التفسير النفسي لمبدأ العلية

لقـد أنكـر دفيـد هيـوم التفسـير العقلـي لمبـدا السـببية بحجـة عـدم وجـود أفكـار قبليـة تسـمح للعقـل بـإدراك العلاقـة بـين العلـة والمعلـول، ويتضـح مـن إنكـار هيـوم للتفسـير العقلـي إرادتـه مـن أجـل إحالـة مبـدأ العليـة إلى التجربـة الحسـية ولكـن هيـوم كـذلك يـرفض القـول بـأن يكـون التفسـير الحسـي لمبـدا العليـة تفسـيرا قائمـا بذاتـه لأن الحـواس لا تكشـف لنـا بطريقـة مباشـرة العلاقـة بـين العلـة ومعلولهـا أو بـين السـبب ومسـببه وهـذا مـا يجعلنـا نتسـاءل: إذا كـان التفسـير العقلـي والحسـي عـاجزين عـن تفسـير مبـدا العليـة تفسـيرا واضـحا فإلى أي مصدر وتفسير يردها هيوم؟

بعـد رفـض هيـوم التبريـر العقلـي والتجـريبي للعليـة قـدم هـو بنفسـه تفسـيرا وجـده مناسـبا لهـذا المبـدأ إنـه التبريـر النفسـي، إذ يـرى هيـوم أن علمنـا بالرابطـة السـببية لا ينشـا عـن التفكـير العقلـي الخـالص بمعـزل عـن الخـبرة الحسـية، ليصـل هيـوم إلى أن كـل الاسـتدلالات الـتي نقيمهـا اسـتنادا إلى الخـبرة إنمـا هـي مبنيـة علـى العـادة[2]، ولكـن اعـتراف هيـوم هنـا بـالخبرة الحسـية لا يعـني اقـراره بتفضـيل التفسـير الحسـي علـى حسـاب التفسـير العقلـي إنمـا فيـه إشـارة إلى العـادة وتأكيـده علـى مبـدأ الخـبرة في تكـوين هـذه العـادة لأنهـا حسـبه هـي التفسـير الأقـرب لمبـدا العليـة، فالعليـة إذن حقيقـة تتعلـق بالـذات وهـي مرتبطـة بالطبيعـة الإنسـانية، لأن العليـة حسـب هيـوم مردهـا العـادة الناتجـة عـن التكـرار الملاحـظ لوقـوع الحـوادث بـنفس الطريقـة إذ يقـول هيـوم: "إن العـادة هـي الـدليل الأكـبر للحيـاة الإنسـانية إذا فهـذا المبـدأ هـو وحـده الـذي يجعـل تجربتنـا مفيـدة لنـا، وتجعلنـا نتوقـع مـن المسـتقبل نسـقا مـن الأحـداث مماثلا لتلـك الـتي كانـت ظهـرت في الماضـي، أمـا بـدون تـأثير العـادة، فإننـا سـنكون جـاهلين تمامـا لكـل واقعـة تتجـاوز مـا هـو حاضـر مباشـر

[1] محمد باقر الصدر,الأسس المنطقية للاستقراء، ص106.

[2] أيوب أبو ديّة، العلم والفلسفة الأوربية الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص235.

للذاكرة والحواس"[1] والعادة التي يقصدها هنا هيوم هي العادة النفسية لأنه مثلا إذا حدث الرعد بعد حدوث البرق مباشرة، فإن حدوث الرعد لا علاقة مباشرة له بحدوث البرق، إنما نتوقع حدوث الرعد لأننا اعتدنا على ملاحظة هذه الظاهرة تحدث بهذا التتابع وعلى هذه الشاكلة، ولما كان الإنسان ما يزال يصر على اكتشاف السبب لا بد من إقناع بأن مفهوماته وعملياته العقلية لن تسفر على أي نتيجة حول هذا الموضوع، والمبدأ الذي سيمكنه من الوصول إلى نتيجة هو العادة، فالعادة هي ذلك الميل الذي يتولد لدينا نحو إعادة أداء العقل الذي داومنا على تكراره بدون دافع، فإذا ما ارتبط شيئان ارتباطا ثابتا كالحرارة واللهب مثلا أو الوزن والصلابة فإن العادة وحدها تجعلنا نتوقع حدوث أحد الأمرين إذا ما حدث الآخر[2].

إذن فتصور العلية بهذا المعنى هو تصور ضروري ولكن ليست الضرورة هنا منطقية ولا قبلية ولا تجريبية محضة، إنما هي ضرورة نفسية، أساسها إدراك تلازم الحوادث وارتباط ذلك التلازم في الذهن وتكوين عادة عن توقع ذلك التلازم في المستقبل، تلك الضرورة بالتوقع وتكوين العادة تؤدي إلى الاعتقاد بتصور العلية[3]، وبذلك ينفي هيوم التفسير العقلي لمسألة العلية كما ينفي التفسير التجريبي من خلال إثباته لقصور الحواس في توضيح التلازم الثابت بين الظواهر التي تكشفها التجربة ولكن تفسيرها يكون من خلال العادة النفسية الغريزية التي تعود إلى الطبيعة الإنسانية.

لهيوم موقف من الدين الطبيعي (الدين السماوي، فيقبل الأول ويقدم له مبررات على وجوده، ويرفض كل المرتكزات التي يقوم عليها الدين السماوي أو الدين التوحيدي مثل مسألة الله، والمعجزات وخلود الروح، ولعل ما يجعل هيوم ينفي كل ما هو ميتافيزيقي غيبي هو الدفاع والحفاظ على قدسية منهجه التجريبي الذي لا يؤمن فيه إلا بما يقوم على الملاحظة المباشرة وفقا قوانين دقيقة قائمة على الحواس كطريق رئيسي لكل حقيقة يقينية ودقيقة.

---

[1] دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص74.

[2] أيوب أبو دية، العلم والفلسفة الأوربية الحديثة، ص237

[3] محمود فهمي زيدان، الاستقراء والمنهج العلمي، ص107.

كما أن هيوم قد قام بتفسير الظاهرة الدينية تفسير سيكولوجي فالاعتقاد الديني يعود في قيامه إلى الطبيعة البشرية، أي إلى النوازع الطبيعية الكامنة في باطن الإنسان، فالخوف والرجاء هما العاطفتان اللتان ساهمتا في تشكيل الدين وهما من يجعلان الإنسان قريبا من الإله الذي يؤمن به.

رفض هيوم مبدأ العلية كما رفض أن تكون ذات مصدر عقلي ولا حتى تجريبي التكرار، فهو يعتبرها المبدأ الوحيد الذي يجعل تجربتنا مفيدة لنا فهي من تسمح لنا بالتوقع لما سيحدث من أحداث في المستقبل ومن دونهما نبقى عاجزين أمام كل واقعة تتجاوز ما هو حاضر، وبهذا التفسير السيكولوجي للعلية من طرف هيوم يجعل من العلية تصور ضروري كونها تسمح لنا بالاكتشاف والتوقع كل تلازم سيكون في المستقبل.

ما يجب التأكيد عليه هنا هو وصول هيوم إلى الشك فهو يرفض الدين السماوي والتوحيدي ويرفض مرتكزاته إلا أنه أبقى على باب إمكانية وجود هذه المرتكزات مفتوحا فهو لا ينفي وجود إله أو حدوث معجزات بل يرى أن الأدلة العقلية عاجزة عن إثبات هكذا مواضيع لنقول أن هيوم قد انتهى في كل أبحاثه إلى الشك وكذلك الأمر بالنسبة للدين.

الفصل الثالث :

مكانة الأخلاق في الفكر الديني الهيومي

المباحث :

- ❖ الخلفية الأخلاقية لهيوم
- ❖ الأخلاق عند هيوم بين نقد العقل وتأسيسها نفسيا
- ❖ الدين وعلاقته بالأخلاق والميتافيزيقا

الفصل الثالث: مكانة الأخلاق في الفكر الديني الهيومي

تمهيد:

تنقسم مباحث الفلسفة إلى ثلاث أقسام: مبحث الوجود أو الأنطولوجيا ومبحث المعرفة أو الابستيمولوجيا، ومبحث القيم أو الأكسيولوجيا، وهذا المبحث الأخير بدوره ينقسم إلى ثلاث مباحث، مبحث المنطق ومبحث الأخلاق وأخيرا مبحث الجمال، ولأن الضرورة تقتضي منا الحديث عن ميدان الأخلاق فإننا سنختص بالكلام عن مبحث القيم وبالضبط عن الأخلاق خاصة يعد الإهتمام الكبير الذي يلقاه هذا الموضوع من طرف الباحثين، حيث أصبحت أكبر الجامعات تخصص عدد أكبر من الساعات لدراسة مادة الأخلاق بعد أن كان الإهتمام مقتصر فقط على المسائل السياسية والإيديولوجية*، وقد كان تطور الفكر الأخلاقي عند الفلاسفة والمفكرين رهنا بتعدد مشاكل الحياة العملية والعلمية وتطورها، ولهذا لا يمكن للفكر الأخلاقي أن ينفصل عن الحياة الإجتماعية اليومية كونها تسعى إلى توجيه حياة البشر إلى الطريق الصحيح وهذا ما جعلها تعتبر ركيزة أساسية في كل دين كون أن كلا من الأخلاق والدين يسعيان إلى توجيه البشرية نحو الطريق الصحيح ما جعلهما يقتربان من بعضهما أكثر، وهذا ما تأكده معظم الديانات التي أثبتت أن تطور الأخلاق يبدأ من الدين، كما أن كل هذه الديانات تدعو إلى التمسك بالواجبات التي تنظم الحياة الأخلاقية ,فإطاعة قوانين الأخلاق يمثل منزلة عليا بين الواجبات الدينية ,وهذا ما جعلنا نتساءل: هل هناك علاقة بين الدين والأخلاق؟ وهل نستطيع أن نجد دينا بلا أخلاق؟ وهل نظرة هيوم للأخلاق هي نفسها نظرته للدين؟ وما هو الأساس الذي أقام عليه هيوم الأخلاق؟

* IdeoLogy نسق من الآراء والأفكار والاعتقادات السياسية والقانونية والأخلاقية ...الخ تختص بمجتمع معين أو طبقة اجتماعية معينة وأول من استعمل هذه الكلمة المفكر الفرنسي "ديستورت دي تراسي" عام 1801، في كتابه "مشروع المبادئ الإيديولوجية" وفيه يحدد الإيديولوجية كعلم يهدف إلى دراسة الأفكار وخصائصها وقوانينها وعلاقتها (كميل الحاج، الموسوعة الفلسفية والاجتماعية، ص81)

المبحث الأول: الخلفية الأخلاقية لهيوم

المطلب الأول: مفهوم الأخلاق:

لا يمكن أن يتحدد لنا مفهوما مضمونا عن الأخلاق إلا بالضبطين اللغوي والاصطلاحي:

1- لغة: جمع خلق وهو العادة، والسجية والطبع، والمروءة والدين[1]، والأخلاق في اليونانية مشتقة من كلمة custom وتعني كذلك العادة[2]

2- الأخلاق في الدلالة الاصطلاحية:

الأخلاق morale طراز سلوك إنساني نوعي لا تخلو منه حياة بشرية في أي مجتمع[3]، وهي أيضا ما يتعلق بالآداب وإما بالقواعد السلوكية للمسلم بها في عصر معين ومجتمع معين[4]، ويطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، والأخلاق توجد على نوعين:

أ- **الأخلاق النسبية:** وهي مجموع قواعد السلوك المقررة في زمان معين لمجتمع معين، نقول مثلا: أخلاق العرب

ب- **الأخلاق المطلقة:** وهي مجموع قواعد السلوك الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان[5]، وهذه الأخلاق التي تتفق عليها جميع البشرية يمكن الاصطلاح عليها بالأخلاق العالمية.

---

[1] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ص 33.

[2] وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، تر: علي عبد المعطي محمد، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، ط2، 2000م، ص 31.

[3] علي مولا، الموسوعة العربية، مج1، منتدى مكتبة الإسكندرية، مصر، ط1، 1998م، ص 556.

[4] أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية، ج1, ص 837.

[5] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص ص 49، 50.

المطلب الثاني: المسار الكرونولوجي للأخلاق قبل هيوم

لتاريخ الأخلاق الأوربي تاريخ طويل بل يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل وهي:

1/ الفترة اليونانية التي تبدأ من عام 500ق.م تقريبا وتنتهي عام 500ق م[1]، وهذه المرحلة جد ضرورية من أجل الإطلاع على الأخلاق في العصر اليوناني، لأن أي محاولة لفهم العقلية الأوربية تقتضي ضرورة العودة إلى العصر اليوناني.

2/ فترة العصور الوسطى التي تبدأ من عام 500 ميلادي إلى عام 1500م

3/ الفترة الحديثة تبدأ من عام 1500م إلى العصر الحالي.[2]

وقد اعتمدنا على هذا التقسيم من أجل توضيح أهم المراحل التي مرت بها الأخلاق وقد ركزنا على أهم الحقبات التي شهدت فيها الأخلاق اهتماما كبيرا، بداية بالعصر اليوناني حيث سادت الدولة خلفية الحياة الأخلاقية حيث دار الحوار بين السفسطائيين وسقراط، وظهرت أخلاق أفلاطون المثالية وتبعها أرسطو بأخلاق واقعية تقوم على أساس نظريته القائلة بأن الفضيلة وسط بين رذيلتين، كما ظهر في هذه الفترة أيضا مذهب اللذة عند الأبيقوريين، والنظرية الرواقية في طلب السعادة، ولقد كان لهذا تأثير على الفكر الأخلاقي والسياسي، ففي مجال الأخلاق سادت أفكار الأخوة والمساواة بين البشر والعدالة وحب الإنسانية جمعاء حبا شاملا كليا، ويجب التأكيد في هذه المرحلة على الدور الكبير لسقراط في إرساء دعائم الفضيلة لما وقف في وجه الفساد السوفسطائي[3]، حيث فضل الموت من أجل أن تسود أفكاره وتبقى مقولته خالدة في التاريخ البشري لما قال: "إذا عاش سقراط ماتت الفضيلة وإذا مات سقراط عاشت الفضيلة"، ولهذا نجده فضل الموت من أجل إعلاء راية الفضيلة، أما أفلاطون فقدم تحليلا أخلاقيا يتعلق بالفرد والدولة على حد سواء، كما اشترط في الفرد أن تتحلى كل نفس بفضيلة من الفضائل الأخلاقية، وكذلك اشترط ذلك على طبقات الدولة وهذه الفضائل هي فضيلة

---

[1] وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، ص 43

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، ص ص 47، 48.

الحكمة والشجاعة والعفة من أجل تحقيق فضيلة العدالة[1]، أما أرسطو فاتجه في أخلاقه اتجاها واقعيا عكس أستاذه وانتهى إلى أن ما يحقق السعادة ليست اللذة أو التشريف السياسي وإنما حياة الحكمة ثم يقدم نظريته عن الوسط العدل وهي التي تقول بأن الفضيلة وسط بين رذيلتين، وركزنا في العصر اليوناني على سقراط وأفلاطون وأرسطو لأنهم يمثلون هرم المعرفة في الفكر اليوناني.

أما في العصر الوسيط فتميزت أخلاق العصور الوسطى المسيحية بأنها كانت متأثرة إلى حد كبير بالديانة المسيحية، فلقد ربط المفكرون في تلك المرحلة بين الأخلاق وبين الدين، كما ذهبوا إلى أنه لا توجد قطيعة بين الأخلاق والسياسة، لكن ما يآخذ على العصور الوسطى هذه أنها لم تشجع التأمل الأخلاقي، ولا البحث الحر في ميدان الأخلاق، بل انكبت على تحديد الصواب والخطأ والخير والشر بالرجوع إلى القانون الإلهي[2]، وهذا العصر الذي كان يعرف الكنيسة والباباوات ولا يحق لأي كان إضافة أو كتابة أي شيء في ميدان الأخلاق أو الدين فالخير ما قررته الكنيسة والشر ما نهت عنه .

_لذلك يمكن القول أن أخلاق العصور الوسطى {المسيحية}هي أخلاق دينية بالدرجة الأولى أو على الأقل تأثرت بالدين وقضاياه، والكنيسة وتعاليمها، والعقل البشري لا يلعب في هذه الحالة دورا كبيرا، بل أصبح العقل قوة لا يعتد بها أمام قوة الدين وسطوته الكبرى[3]

ولكن ما يحسب للفلسفة المسيحية أنها قد أدخلت فكرة جديدة لما قرنت الثواب والعقاب في الآخرة بالحياة الخلقية في الدنيا أو الثقة بالله وبرحمته، وأنه بوسعه تعالى أن يغفر ذنوب المرء إذا ما تاب وندم على فعله، فالفلسفة المسيحية تهتم بنعيم الآخرة، وبالتالي فهي تنادي بالزهد والتقشف، وبذلك يتعذر الحديث فيها عن مذهب السعادة[4]، إذ ما يمكن قوله أن الديانة المسيحية جاءت ببعض الأفكار جديدة مخالفة لما كانت في الفلسفات السابقة ولكن هذه الأفكار (الجديدة) كانت لب ما

---

[1] المرجع نفسه، ص ص 48، 56.

[2] وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، ص57.

[3] المرجع نفسه، ص 58.

[4] محمد مهران رشوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ص 123.

جاء في الإنجيل وهي أفكار فسرها وأولها القسيسون والباباوات بعيدا عن أي جهد عقلي خاص قائم على التأمل والتفكير.

أما في العصر الحديث والمعاصر فلقد بدأت بفقد الكنيسة للسلطة المخولة لها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ويرجع السبب في ذلك إلى ظهور المذهب الفردي الذي أكد على الحرية الإنسانية بمعزل عن الوحي المسيحي، كما يرجع إلى الانقسامات والاختلافات المستمرة داخل الكنيسة مما أضعفها وزعزعها[1]، فأصبحت بذلك الكنيسة من دون سلطة ,وأصبح الفرد يحمل إنجيله بين يديه ويفسره تفسيرا فرديا فهو من يصدر الحكم الخلقي فالخير ما يقره والشر ما ينفر منه وهكذا.

وفي القرن السابع عشر شهد العالم تطورا كبيرا وازدادت سلطة الفرد في مقابل تقلص سلطة الكنيسة وشكل ظهور العلم كعامل من عوامل القوة أدى إلى تغيير كبير في حياة الإنسان وقلب أسس التفكير، فتغيرت النظم الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والفكرية والأخلاقية[2]

وقد حفل القرن السادس عشر بتفويض أسس المنطق وعلم المناهج اللذين كانا سائدين في العصور الوسطى، وذلك على يد "فرانسيس بيكون" كما حطم "إيرامـوس وكالفن"-في معرض محاولاتهم تقوية الصلة بين الدين والأخلاق- البنية الأساسية للقانون الذي كان مقاما على السلطة الأخلاقية للكنيسة إبان العصور الوسطى، ونسف ميكيا فيلي الجسر الذي كان قائما بين الأخلاق والسياسة ثم جاء ديكارت وهوبز وليبنيتز وسبينوزا ولوك وغيرهم[3]، وبالتالي ظهور أفكار وتفسيرات أخلاقية جديدة ,ولهذا يمكن القول أن هذا القرن هو قرن الديمقراطية والحرية الفكرية.

ونستعرض أهم الآراء الشائعة حول الأخلاق عند الفلاسفة الإنجليز السابقين على هيوم، إذ أنه بعد التخلص من سلطة الكنيسة في العصر الحديث أصبح بإمكان المفكرين والفلاسفة الإشتغال في ميدان الفكر وتقديم أفكارهم ونظرياتهم في شتى الميادين، ويمكن القول بأن الأخلاق فلاسفة القرنين

---

[1] وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، ص 59.

[2] محمد مهران رشوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، ص ص 127، 128.

[3] المرجع نفسه، ص 130.

السابع عشر والثامن عشر تندرج تحت ما يطلق عليه اسم "ابستيمولوجيا* الأخلاق" ومعنى هذا أن الإشتغال بالبحث على مصدر الحكم الخلقي، وأدى هذا إلى ما نعرفه في فلسفة الأخلاق بالتباين بين الحس والفعل[1]، لقد اختلف الفلاسفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر حول أساس الفعل الخلقي فتفرقوا في هذه النقطة، حيث اقسموا إلى فئتين فالأول يرجع الأخلاق إلى العقل كون الإيمان بالعقل في تلك الفترة كان إيمان مطلق وموضع ثقة كبيرة، فهو الملكة التي تحدد الخير والشر أما الفئة الثانية فتجعل من العاطفة والحس الداخلي منبعا للأخلاق، فيا ترى ما مصدرية الأخلاق عند الفلاسفة السابقين على هيوم؟ وهل لهم تأثير على فلسفة هيوم الأخلاقية؟

قبل الحديث عن المدرستين العقلية والحسية الخلقية لابد من التعريج على "توماس هوبز" ونظريته في الأخلاق لأنه كان السباق إلى الحديث والتفصيل في هذا الميدان، ويمكن القول أن جل الفلسفات التي أتت من بعده إنما كانت تنطلق مما وصل إليه هوبز، وهذا يؤكد على أثره الكبير على تيارات الفكر الأخلاقي اللاحقة في العصر الحديث، ويمكن القول أن النظرية الأخلاقية الحديثة قد بدأت مع هوبز.

ولقد تأثر هوبز بالعلم الحديث وخاصة فزياء جاليلو** (**1564-1642**) ونظريته القائلة بأن العالم يتألف من مادة وحركة وهذا ما جعل هوبز ينظر إلى العالم بما فيه الإنسان على أنه يتألف من أجسام، وهي جواهر مادية بحتة، ومعنى ذلك أن العالم يخلو من شيء اسمه النفس أو الروح وكل ما هنالك مادة وحسب[2]، وهذا ما جعل فلسفة هوبز كلها تقوم على أسس مادية، فكل شيء في

* ebistemelogy مصطلح يأتي من اللغة اليونانية مؤلف من كلمتين "ابستيم" ومعناه المعرفة و"لوغوس" ومعناه العلم أي علم المعرفة والابستيمولوجيا هي فرع من فروع الفلسفة تبحث في المعرفة ومصادرها وأشكالها ومناهجها وتركز على دراسة ونقد الفرضيات العلوم المختلفة (كميل الحاج، الموسوعة الفلسفية والاجتماعية، ص13)

[1] محمد مهران رشوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، ص130

** عالم طبيعة وفلكي إيطالي ولد في بيتيزا ودرسي الطب في جامعتها كما درس الفلسفة والرياضيات والفلك أيضا مع شغف كبير باليونانية كتابه المشهور "حوار تناقش فيه أربعة أيام متوالية أهم نظريتين في العلم" وحكم عليه بالخروج عن الدين لقوله بمذهب كاذب منفي للكتاب المقدس توفي بالحمى عام 1624.

[2] المرجع نفسه، ص131

فلسفته يؤكد على ضرورة أن يفسر تفسيرا ماديا وهذه النظرة امتدت إلى سائر فلسفته ومنها الأخلاق، إذ يرى هوبز أن كل إنسان يجب أن يسعى إلى تحقيق سعادته ورغباته الخاصة لأن خيره في ذلك ,فهوبز في نظريته الأخلاقية يبرر الباعث الأخلاقي عند الإنسان بإرجاعه إلى الطبيعة البشرية القائمة على حب النفس والمحافظة عليها وذلك بطلب ما يسعدها وتحقيق لها اللذة والابتعاد عما يضرها ويؤلمها[1]، فهوبز هنا يقر بأن مصدر الحكم على الأخلاق إنما هو الطبيعة البشرية فالخير ما استحسنته والشر ما نفرت منه، ويؤكد هوبز على أن العلاقة بين الناس هي علاقة نزاع باستمرار، أي أن الناس أنانيون بالطبيعة، ويرد هوبز هذا النزاع المستمر إلى ثلاثة أسباب رئيسية هي: التنافس وعدم الثقة والشهرة[2]

وبالتالي فالعلاقة بين البشر علاقة تنازع من أجل shaftesbury.anthony تحقيق الرغبات والحصول على أأكبر قدر من اللذة.

1- مدرسة الحاسة الخلقية:

انطلاقا من فلسفة هوبز (**1679-1588**) الأخلاقية نصل إلى مدرسة الحاسة الخلقية حيث يذهب أنصار هذه المدرسة "لورد شافستبري* (**1671-1713**) وفرنسيس هاتشيسون** hutchisom.francis (**1694-1774**" إلى أن العاطفة أساس الأخلاق ونفروا من رد الأخلاق إلى وجدان اللذة والألم وتعليقها على أنانية الإنسان، ونفورهم هذا كان بمثابة رد فعل انتهى

[1] أحمد أمين، الأخلاق، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931، ص 38.

[2] نقلا عن: توفيق الطويل، الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، مصر، 1976، ص 311.

* فيلسوف أخلاقي انجليزي ولد في لندن تتلمذ على يد الفيلسوف جون لوك ولكنه عارضه فيما بعد من مؤلفاته "نشوة الفلسفة" أول من استعمل تعبير الحس الخلقي وشبهه بالحس الموسيقي والفن كان هدفه أن يبرهن أن الأخلاق مستقلة عن الدين ومستقلة أيضا عن الاعتقاد بالله (كميل الحاج، الموسوعة الفلسفية والإجتماعية، ص312)

** فيلسوف أخلاقي انجليزي ولد في إرلندا كان يدرس فلسفة الأخلاق في جامعة غلاسكو أضخم مؤلفاته هو مذهب في فلسفة الأخلاق متأثر بلورد شافستري يذهب إلى أننا نملك حسا خير للخلق (كميل الحاج، الموسوعة الفلسفية والإجتماعية، ص628).

إليه هوبز[1]، فهذه المدرسة ترجع الفعل الأخلاقي إلى العاطفة ناقدين في ذلك النزعة المادية لهوبز، ولهذا نجد شافستبري إلى القول بأن التفسير الذي يقدمه هوبز يكون صحيحا فقط إذا نظرنا إلى الإنسان على أنه فرد منعزل يعيش بمفرده، فهذا الموجود نسميه "خيرا" إذا انسجمت دوافعه وميوله وكانت ملائمة لتحقيق سعادته، ولكن الإنسان يجب النظر إليه في علاقته بالنسق الكبير الذي يكون جزءا منه، وبالتالي نسميه "خيرا" عندما تنظم دوافعه وميوله لتحقق خيرا لهذا الكل الكبير[2]، أراد شافستبري بهذه الفكرة أن ينتقد فكرة هوبز الأنانية فالخير هو ما يتحقق لأكبر قدر ممكن من الناس وليس لواحد فقط، فالواحد يعيش في مجتمع وهو جزء منه والخير لا يكون إلا بمساس كل هذا المجتمع، ويضيف ويؤكد "شافستبري" على أن الموجودات البشرية تملك عواطف تفيد الأنواع التي تنتمي إليها ويسميها "العواطف الطبيعية" وتملك أيضا عواطف خاصة تنزع إلى تحقيق خير الفرد ويسميها "عواطف خاصة ذاتية" وتشمل حب الحياة والرغبة الجسدية والمصلحة الذاتية، وتملك أيضا إلى جانب النوعين السابقين عواطف "غير طبيعية" وهي لا تميل نحو خير النوع ولا تميل نحو خير الفرد، ويندرج تحتها الدوافع الشريرة التي تنشأ عن العادات الهمجية والخرافة[3]، فالعواطف هي من تجلب السعادة وهيي من تجلب الشقاء والبؤس.

أما "هاتشيسون" فيتفق مع "شافستبري" في فكرة أن الإنسان يمتلك حسا للخير الخلقي يمكن تسميته بقوة باطنية غريزية نميز بها بين الحق والباطل، فكل إنسان إذا عرض عليه عمل تلهمه هذه القوة أنه خير أو شر وهذه القوة منحناها لنميز بها بين الخير والشر، كما منحنا العين لنبصر بها والأذن لنسمع بها[4]، ويرى أن التجربة تظهر لنا على معلولات الأفعال وتعلمنا أن خير الأفعال ما عاد بأكبر

[1] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1998، ص 17.

[2] المرجع نفسه، ص 18.

[3] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 19

[4] أحمد أمين، الأخلاق، ص 28.

سعادة على أكبر عدد من الناس[1]، إذن ما يمكن قوله أن قيمة الفعل الخلقي تتحقق بتحقيق أكبر قدر من الخير على أكبر عدد من الناس.

ويواصل "هاتشيسون" فينتقد هوبز كما أكد على أن الحاسة الخلقية تجعل من الفعل الخلقي منزها عن كل منفعة وتجعله غاية في ذاته مادام حب الذات والأنانية عواطف مرفوضة أخلاقيا، ويقدم هاتشيسون ثلاث قضايا أساسية في الأخلاق، أولها أن لدينا دافع الأريحية الحقيقي فنحن نرغب في سعادة الآخرين بوصفها غاية لا بوصفها وسيلة فقط لسعادتنا، إننا نريد أن تكون أسرتنا وأصدقاؤنا ووطننا سعداء بعد أن نموت مع أنه ليس لنا أمل في القدرة على الاستمتاع بسعادتهم[2]، فهذه حقيقة باطنية في الإنسان الذي يحب الخير لغيره ويشتهي أن يرى الناس سعداء دون أن يكون له مصلحة أو غاية شخصية.

أما القضية الثانية هي أننا نمتلك حسا أخلاقيا ويقصد به تحديد العقل لأن يستقبل أي فكرة من أي موضوع من الموضوعات يحدث لنا باستقلال عن إرادتنا، إن للحس الأخلاقي قدرة على امتلاك نوع من الانطباع مفروض علينا بصورة مباشرة بدون استدلال ولا يمكن أن ننكر هذه الإستجابة المباشرة المختلفة لأفعال إرادية[3]، أي أن الحس الخلقي يفرض نفسه كمصدر لإثارة الإستجابة داخل الإنسان دون معارضة منه.

وثالث القضايا الأساسية في نظرية هاتشيسون هي أن الحاسة الخلقية لا تتميز عن الأريحية، بل يبدو انهما في أكثر الحالات شيء واحد، وقد تيسر الخلط بينهما عنده لأنه يجمع في مذهبه بين الحواس والرغبات والأهواء والمشاعر حتى لا يكاد يميز بين مدلولات هذه الألفاظ[4]، وفي هذه القضية الثالثة يؤكد هاتشيسون على مدى تطابق معنى ومدلول كلا من الأريحية التي اعتبرها القضية الأولى

---

[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 159.

[2] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 20.

[3] المرجع نفسه، ص 21.

[4] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

والحاسة الخلقية وهذا ما جعله يربط الأخلاق مباشرة بالحاسة الخلقية وبالتالي يمكن القول أن أنصار مدرسة الحاسة الخلقية يرون أن العاطفة هي أساس الأخلاق.

2- المدرسة العقلية: تتمثل بصفة خاصة في "صمويل كلارك" و"ولاستون"، أما بالنسبة لكلارك فقد وضع الأخلاق بين العلوم التي يمكن البرهنة عليها من قضايا واضحة بذاتها بوصفها لا تقبل الجدل، مثل تلك القضايا الموجودة في الرياضيات[1]، ومعنى هذا أن تشبيه كلارك للأخلاق بالرياضيات دعوى منه لإقامة الأخلاق على أساس عقلي, فقضايا الأخلاق والرياضيات قضايا بديهية لا يختلف عليها اثنين، وما دامت بديهية فهي قريبة إلى العقل أكثر من أي مصدر آخر، فيقيم كلارك حجتين على مطلقية الأخلاق، الأولى تتمثل في أن حكمنا على فعل معين أنه صحيح فهذا الكون صحيح فعلا وما دام أنه صحيح فهو ملائم، والثانية تتمثل في أن حذف الأفعال الصحيحة أمر مناقض للعقل[2]، ومنه فإن العقل هو المرجعية في الأخلاق لأنه يحدد الفعل الصحيح ويمنع حذفه أو التفريط فيه، كما أن الأفعال الصحيحة التي عددها العقل هي بالضرورة خيرة أما الأعمال التي يسمح العقل بحذفها هي أفعال شريرة.

لقد أراد كلارك أن يثبت أنه بإمكاننا ان نعرف بصورة قبلية أن أفعال معينة ملائمة ,ولكن أيضا الأفعال الملائمة يجب أن تؤدى ,ونحن نعرف بصورة قبلية أن الأعمال الملائمة واجبات لأن إنكار أنها واجبات إقرار أنها متناقضة ذاتيا[3]، ينتهي كلارك هنا إلى إثبات أن الأعمال الملائمة او الخيرة هي أفعال قبلية في العقل حكم عليها بالملائمة والصلح ولكنه أكد على ضرورة القيام بهذه الأفعال الملائمة والصحيحة لأن الإعتراف بأنها صحيحة يقتضي ممارستها لأنها واجبة.

أما آراء "ولاستون" فهي قريبة من آراء "كلارك"، ولكنه يحاول أن يقدم تمييزا عاما لكل الأفعال الخاطئة أخلاقيا، ويهتم ولاستون بتعريف الحقيقة على أنها القضايا الصادقة التي تعبر عن أشياء كما هي أو أن الصدق هو مطابقة الكلمات أو الإشارات التي نعبر بها عن الأشياء للأشياء ذاتها،

---

[1] المرجع السابق، ص21.

[2] المرجع نفسه، ص22.

[3] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 22.

ويـرى أن القضـية قـد تنكـر أو تقبـل عـن طريـق أفعـال، بمعـنى أننـا نسـتطيع أن نقـول أشـياء عـن طريـق أفعـال[1]، ومعـنى هـذا أن ولاسـتون ربـط صـدق وحسـن القضـية بممارسـتها فقبولهـا يعـني ضـرورة ممارسـتها. ويضـيف أن النـاس ليسـو مجـبرون فقـط علـى ان يتجنبـوا مـا هـو متنـاقض ذاتيـا فحسـب، ولكـن يجـب أن يفعلـوا أيضـا مـا هـو منسـق ذاتيـا، أي أنهـم ليسـوا مجـبرين علـى تجنـب الزيـف ولكـن علـى تأكيـد الصـدق[2]، ويؤكـد هنـا ولاسـتون علـى ضـرورة تأكيـد أن الأفعـال الصـادقة لإثبـات صـحتها وإثبـات عـدم اختلافهـا مـن مجتمع لآخر يجب العمل بها حتى يحدث الاتفاق على صدقها.

مجمـل القـول أن أنصـار المدرسـة العقليـة يرجعـون الأخـلاق إلى العقـل بينمـا يردهـا أنصـار الحاسـة الخلقيـة إلى العاطفـة، ولعـل المدرسـة الأخـيرة هـي المدرسـة الـتي وجـدت إقبـالا مـن طـرف الفلاسـفة الإنجليـز بما فيهم دافيد هيوم

[1] المرجع السابق، ص22

[2] المرجع نفسه، ص 23

المبحث الثاني: الأخلاق عند هيوم بين نقد العقل وتأسيسها نفسيا

بعـد أن عرفنـا الاتجـاهين السـابقين اللـذين يحـاولان تفسـير الأخـلاق ,حيـث يردهـا الأول إلى العاطفـة وهـم أصـحاب مدرسـة الحاسـة الخلقيـة، بينمـا يرجعهـا الإتجـاه الثـاني إلى العقـل وهـم أصـحاب المدرسـة العقليـة، كـان لزامـا علينـا أن نصـل إلى هيـوم ورأيـه حـول مصـدرية الفعـل الخلقـي، حيـث يمثـل مبحـث الأخـلاق في فلسـفته مكانـة جـد خاصـة كونهـا تتعلـق بالإنسـان بالدرجـة الاولى، كمـا أنهـا عنـده لا تختلـف عـن المعرفـة مـن ناحيـة الأهميـة ولهـذا نجـده قـد حـاول إعطـاء تفسـير للأخـلاق يكـون أقـرب إلى الحقيقـة وأن لا يعـارض بـه الفلاسـفة التجريبيـون وخاصـة مدرسـة الحاسـة الخلقيـة، ولكـن التسـاؤل يبقـى مطـروح وهـو إلى أي مـدى كـان تـأثر هيـوم بمدرسـة الحاسـة الخلقيـة؟ وهـل تـأثره هـذا جعلـه يعـارض المدرسـة العقلية؟ وهل تأثره هذا جعل تفسيره للأخلاق تفسيرا عاطفيا أم أن للعقل دورا فيه؟

المطلب الأول: نقد التفسير العقلي للأخلاق

لعـل تقسـيم هيـوم لكتابـه رسـالة في الطبيعـة البشـرية إلى ثلاثـة كتـب تتنـاول علـى التـوالي، الفهـم والعواطـف والأخـلاق، ومـا هـو هـام وجديـد في نظرياتـه، ولعـل الشـيء المثـير هنـا هـو تخصـيص كتـابين للحـديث عـن الأخـلاق والعاطفـة بالإضـافة إلى اهتمامهـا الكبـير بـالأخلاق فقـد كـان موضـوع كتابـه في الأخـلاق هـو البحـث عـن الأسـاس الـذي نقـيم عليـه احكامنـا الخلقيـة، أنقيمهـا علـى أسـاس المنطـق العقلـي أم نقيمها على اساس الميول الوجدانية.

يـرى هيـوم أن الأخـلاق لا تنبـع مـن العقـل بـل تنبـع مـن الشـعور، فالعقـل وحـده غـير قـادر علـى ان يكـون سـببا مباشـرا ووحيـدا لانفعالنـا، بـل إنـه ذهـب إلى أبعـد مـن ذلـك فقـال "إن العقـل وحـده يجـب أن يكـون عبـدا تابعـا للعواطـف، ولا يجـب ان يقـوم بعمـل آخـر أكثـر مـن خدمـة وإطاعـة العواطـف"[1]، وفي القـول تصـريح مباشـر لهيـوم بـأن العقـل لا يمكنـه أن يكـون لوحـده مصـدر للأخـلاق بـل هـو تـابع وعبـد للعواطـف، ومـا دام عبـدا لسـلطة إلزاميـة عليـه فـلا يمكـن أن تسـتمد منـه أحكامـا أخلاقيـة ليقـدم هيـوم عـدة أدلة تدل على ان العقل وحده ليس أساس للأخلاق.

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص 340

_العاطفة تحركنا إلى الفعل بينما العقل لا يحركنا إليه[1]، أي أن ما يحتاجه الإنسان من عواطف ومن شعور ومن إحساس يعود إلى الفعل الخلقي وبالتالي هذه الانفعالات هي من تحدد السلوك الذي يجب أن يحذوه الفرد أما العقل فمهمته تقتصر على الأمور الرياضية والبديهية.

ما هو معقول وغير معقول لا ينطبقان على الأفعال الاخلاقية[2]، فمثلا كأن يكون سلوك أخلاقي حميد ولكن العقل لا يبرره ولا يسمح به، وهنا نعطي المثال بقصة سيدنا إبراهيم وابنه اسماعيل لما قال سيدنا إبراهيم لابنه اسماعيل{ يا بني إني أرى في المنام اني أذبحك ,فأنظر ماذا ترى}[3]، وما كان على الابن إلا الانصياع للوالد والتضحية بنفسه وأعز ما يملك وهي نفسه من أجل إرضاء الوالد وسلم نفسه له، فهذا الامر من الناحية العقلية غير مقبول ولا نجد له تفسير ولكن عاطفة الحب والاحترام من قبل الابن لأبيه جعلته يمتثل لرأي وأمر الوالد.

ويضيف هيوم دليل آخر وهو خاص بما ينبغي أن يكون وما هو كائن وهذا الدليل واضح وبسيط، ومؤداه إنه إذا كان بعض الفلاسفة خاصة العقليون منهم يرون أنه لا يمكن أن يستمد الواجب مما هو كائن فإن هيوم يرى أن هذا الأمر غير مشروع وذلك لأننا نستنبط علاقة جديدة من علاقات أخرى مختلفة عنها تماما[4]، وقصد هيوم هنا أن العقل يقرر ما هو كائن فقط وما يصله فقط في تلك اللحظة التي وصلته فيها رسائل الحواس فلا يمكن إذا أن تستمد قضايا أو أفكار تقرر ما ينبغي على الإنسان أن يفعله من قضايا أو أفكار تقرر ما هو كائن، وهذا ليس منطقي، وبالتالي لا يمكن أن تستمد الأحكام الخلقية من الفعل لأن أحكامه تقرر ما هو كائن فقط.

كما يضيف هيوم دليل آخر وهو أن الأخلاق ليست قابلة للبرهان وليست مسألة من مسائل الواقع، وأراد بقوله هذا أن يثبت أن الأخلاق ليست ضمن العلاقات الأربع الفلسفية التي تسبب البرهان، وهذه العلاقات هي التشابه والتناقض والدرجات في الكيف والتناسب في الكم والعدد، وما

---

[1] المرجع السابق، ص 340

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] سورة الصافات، الآية 102

[4] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 39

دفع هيوم إلى هذا هو أن هذه العلاقات جميعها تخص –في رأيه– موضوعات عديمة الحياة (المادة) كما أنها تخص أيضا أفعالنا وعواطفنا[1]، ومعنى هذا أن هذه الموضوعات التي تخصها العلاقات الأربع التي تعتمد البرهان لا تحوي ضمنها الأخلاق، كما أن موضوعاتها تخص أيضا أفعالنا وعواطفنا وليست خاصة بقضايا البرهان فقط فهي ليست إنتاج عقلي ذهني برهاني محض بل تشترك في هذا مع عواطفنا.

ويواصل هيوم نقده للتفسير العقلي للأخلاق فيؤكد على ضرورة التعرف على جميع الوقائع الخاصة لفعل ما من الأفعال قبل أن ننطق بأخلاقيته[2]، ومعنى هذا أن الحكم على الفعل والسلوك الخلقي ليس حكم قبلي بل يجب معرفة كل خصائص الموضوع المراد الحكم عليه، ومنه فإن العقل بهذا لا يمكنه إعطاء حكم على موضوع أخلاقي بما انه يحتاج لمعرفة كل خصائصه ,وبذلك انتفت صفة القبلية على الموضوع الأخلاقي بالنسبة للعقل وما دام الموضوع الخلقي غريب على العقل وجديد عليه فلا يستطيع الفصل في الحكم، فهو بحاجة لمعرفة هذا الموضوع جيدا ,وهذه المعرفة لا تكون إلا بحاسة أخرى وهو في حاجة لها، وما دام كذلك فهو قاصر لوحده من أجل الحكم على أي موضوع كان سواء بالخير أو الشر أو بالحسن أو بالقبح.

إن كل هذه الإنتقادات الموجهة للعقل من طرف هيوم هي في الحقيقة ذريعة يسعى من خلالها لإثبات قصور العقل على أن يكون مصدر للتشريع وبالتالي يجب البحث عن مصدر تشريع آخر نقوم عليه الأخلاق، وهو الغريزة الإنسانية كون أن الاخلاق علم تجريبي وكل ما هو تجريبي فهو نسبي يرتبط ارتباطا وثيقا بعلم النفس أي أنه يقوم على المشاركة أو التعاطف بين بني البشر[3]، وبالتالي هيوم يرجع الأخلاق إلى الطبيعة البشرية وما تملكه من عواطف وميولات خاصة بكل فرد، فكل فرد وميوله وبالتالي فإن الأساس الذي تقوم عليه الأخلاق هو التجربة النفسية الداخلية, فيا ترى ما هي الدوافع النفسية التي يتكلم عليها هيوم؟

---

[1] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 36.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] إبراهيم مصطفى أبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص 340

المطلب الثاني: مصدرية الأخلاق عند هيوم

1/ الحاسة الخلقية

إن فلسفة دافيد هيوم كلها حاول فيها أن يجعل من الطبيعة البشرية أساسا لها، وبالتالي يجب عليه أن يجد أساس للأخلاق لا يتناقض مع مذهبه الرئيسي حيث أكد على أن الأخلاق كلها قائمة على أساس نفسي باطني داخلي, ولكن ما هي الحاسة أو الغريزة التي تحكم على الفعل الخلقي، يجيبنا هيوم فيؤكد على أن السلوك الأخلاقي يجب أن يعتمد على شيء لديه قوة تحريك أو دفع الإنسان على الفعل، وهذا ما يعجز عليه كونه لا يملك هذه القوة أما الحاسة القادرة على تحديد الفضيلة والرذيلة هي الحاسة الخلقية[1].

إن الحاسة الخلقية التي يتكلم عليها هيوم يرى بأنها تنطبع بمؤثرات اللذة والألم، فعند ما نقول لماذا يكون فعل من الافعال أو سلوك معين فاضلا أو غير فاضل فإن إجابة هيوم لأنه يسبب لذة أو ألما من نوع معين[2]، ومعنى هذا أن هذه الحاسة بمثابة قوة شعورية فطرية في طبيعة البشر تبعث فينا إحساسا باللذة والألم، فعندما نقول مثلا عن فعل ما أنه فاضل، ذلك لأنه يبعث فينا شعورا باللذة وعندما نقول عن آخر أنه غير فاضل فذلك راجع بسبب ما يحدثه من ألم.

كما يضيف هيوم فيقول: "لقد لاحظنا أنه لا شيء موجود في العقل، ولكن في الإدراك هذا المصطلح الأخير يتضمن جميع أنشطة الرؤية السمع والأحكام، المحبة والكره والتفكير لا يمكن للعقل الأخير أن يمارس أي عمل من تلقاء نفسه، ولذا لا يمكننا فهمه تحت مصطلح الإدراك، وبالتالي هذا المصطلح ليس أقل تطابقا مع تلك الأحكام التي نميز بها بين الأخلاق الخيرة والشريرة[3]

ومعنى هذا ان هيوم أكد على أن العقل عاجز عن فهم جميع الأنشطة إذا تعلق الأمر بالأحكام الخلقية كون أنها تكون ذاتية، لأنها نابعة من المشاعر الإنسانية كما أنه لا يستطيع أن يؤثر في السلوك ولا أن يقضي بشيء في مسائل الأخلاق وليست لديه القدرة على إنشاء السلوك أو منعه

---

[1] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 45.

[2] المرجع نفسه، ص 46.

[3] Hume david :a trealise , of humane nature , o p. cit. p 456

طالما أن الأحكام الخلقية ليست من اختصاصه، حيث أنها ليست من أمور الواقع ولا هي علاقات بين الأفكار ومنه فهي تتجاوز نطاقه.

ومن الواضح أننا نميز الفضيلة عن طريق اللذة ونميز الرذيلة عن طريق الألم، بمعنى أن الأخلاق يشعر بها بصورة ملائمة أكثر من الحكم عليها، ومنه يمكننا القول أن الخير والشر عند هيوم إحساس معين بالألم أو إحساس معين باللذة وهما مقولتان أساسيتان في الطبيعة البشرية أو لونان من الانطباعات الحسية التي تطبع فينا حاسة مستقلة بذاتها عن سائر الحواس هي الحاسة الخلقية، ندرك بها ما هو خير وما هو شر كما ندرك الألوان بالعين والأصوات بالأذن[1]، ومعنى هذا أن الخير والشر حسب هيوم ليسا شيئا سوى الشعور بالرضى والألم وهو شعور متأصل في الطبيعة الإنسانية، يتميز بنوع من المشاركة الوجدانية، ومقولتا الخير والشر لا يمكن إدراكهما إلا بالحاسة الخلقية المتأصلة في الطبيعة البشرية.

ولكن يجب القول أن الفضيلة لما أرجعها هيوم إلى أنها ما تبعث الرضا في النفس واللذة، معنى ذلك أن الخير هو ما ينفع ,لا يعني أنه فسرها تفسيرا براغماتيا نفعيا خاص، بل هيوم يحذر من أن نأخذ كلمة المنفعة بمعناها الفردي بل يريد بها المنفعة العامة، فما يعود بالخير عل أكبر عدد ممكن من الناس أفضل مما ينفع فردا واحدا فقط، وبهذا يقرر هيوم أن للفضيلة ثوابها وللرذيلة عقابها، وهما اللذة والألم اللذان يشعر بهما من يعمل بالفضيلة أو يأتي بالرذيلة[2]

وزيادة على كل ما سبق يضيف هيوم أن الفعل الإرادي الإنساني لا يستند إلى إرادة ذات حرية مطلقة لا حدود لها، بل يصدر عن حتمية السلوك الإنساني الذي يستمد مقوماته من شخصية الفرد دون إلزام خارجي، فالفعل إنما يخضع للعواطف والانفعالات التي تؤلف في مجموعها الطبيعة الخاصة لكل شخصية فردية، ومن هنا جاءت المسؤولية الفردية على السلوك، ولكن السؤال يطرح نفسه وهو كيف يمكن أن يتفق الناس على قواعد واحدة للسلوك الأخلاقي إذا كان كل فرد يتصرف

[1] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 47

[2] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص248

وفق ما تمليه عليه انفعالاته[1]، ما يقصده هيوم هو أن التعاطف يجعل الفرد بمجرد دخوله في علاقات مع بني جنسه وبعد ملاحظته لملامح وأعراض أي شخص يجعله هذا يشترك معه في نفس العاطفة، سواء أكان حزينا أو سعيدا قلقا أو مرتاحا، فنبتسم أمام من أراد أن يبتسم في وجوهنا ونحزن إذا رأينا الشخص يبكي أو حزين.

ومن خلال كل هذا يظهر لنا مدى تأثير العواطف في بناء الفعل الخلقي وتوجيهه كما ينبغي لنا أيضا اعتبار أن الأفعال الخلقية التي كنا قد مررنا بها أو عايشناها كان منبعثا من العاطفة أو حس وجداني داخلي لم نكن نملك التفسير المناسب في ذلك الوقت ولكن اليوم اتضحت الصورة، فمثلا عاطفة الحب تنجر عنها أخلاق وسلوكات وصفات حميدة خاصة اتجاه من نحب، أما عاطفة الكراهية والحقد فتنجم عنها أفعال غير حميدة.

2/ العاطفة:

يرى هيوم أنه إذا كانت الحاسة الخلقية لا تكفي لدفع الناس إلى إلتزام بالفعل أو السلوك الأخلاقي فكان لا بد أن تتدخل العواطف لكي تقوم بهذا الدور دون تحفيز الإنسان على العمل الخلقي[2]، فالعواطف هنا هي من تدفع الإنسان للفعل الخلقي كون أن الإنسان بطبيعته ينشد الخير ويحب كل ما هو خير للآخرين، وبالتالي العواطف هي من تجعل الناس يتفقون حول فعل الخير والابتعاد عن الشر فهي من توحد بين الناس عند اختيارهم لأفعالهم الأخلاقية، وهذه الغريزة هي ما تسمى بالتعاطف أو المشاركة الوجدانية، وهي ما يرجعها هيوم إلى الغريزة الطبيعية.

يقول زكي نجيب محمود: "الحاسة الخلقية لا تكفي وحدها لدفع الإنسان إلى الفعل الخلقي فلا يكفي أن أعلم –عن طريق هذه الحاسة الخاصة– أن الموقف الفلاني فضيلة لأدنو من فعله أو لا نفر منه، بل الذي يدفع الإنسان لفعل هذا أو ترك ذاك حافز آخر ليس هو على وجه الدقة الصفة الخلقية في الشيء أو في العقل والتي من أجلها يراد عمل الفضيلة ونبذ الرذيلة فالحافز الذي يحفز الإنسان على الفعل والصفة الخلقية المعينة التي تبرر العمل شيئان مختلفان، الأول حالة نقية بحثها من شأن علم

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص 341

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الـنفس والثانيـة وحـدها هـي الـتي تعـني بهـا النظريـة الأخلاقيـة"[1]، ويقصـد هنـا نجيـب محمـود أن الحاسـة الخلقيـة لا تكفـي لوحـدها علـى دفـع الفـرد إلى القيـام بفعـل خلقـي، بـل مـن يقـوم بهـذا الـدور هـو العاطفـة فهي من تبرر العمل الأخلاقي وتدعو إليه.

والعواطـف عنـد هيـوم نوعـان: عواطـف مباشـرة تنشـأ مباشـرة مـن الخـير أو الشـر، مـن اللـذة أو الألم، وتنحصر في الرغبة أو الإشمئزاز، الحزن أو السرور الأمل والرجاء اليأس والطمأنينة.

وعواطـف غـير مباشـرة تنشـأ مـن نفـس المبـادئ ولكـن بارتبـاط خصـائص أخـرى، وتنحصـر في الإعتـزاز بـالنفس والطمـوح والغـرور والحـب، الكراهيـة والحقـد، الشـفقة والفضـيلة والكـرم، ومـا يـرتبط بـه مـن فضـائل[2]، حيـث تنشـأ هـذه الأخـيرة لمجـرد تأملنـا للجمـال والقـبح الـذي يكـون في الأفعـال أو في الأشـياء، فهـي العواطـف الـتي تنشـأ نتيجـة الرضـى أو السـخط الـذي يبديـه الإنسـان تجـاه فعـل معـين، ويمكـن القـول أن الأشـياء الـتي تحـدد لنـا المتعـة أو الألم إنمـا تكـون مرتبطـة بنـا نحـن أو أنهـا تـرتبط بأنـاس آخـرين، ففـي الإتصـال معنـا نحـن سـبب بعـض المشـاعر المباشـرة مثـل الحـزن والسـرور والطمأنينـة واليـأس، أمـا إذا ارتبطـت بالآخرين فتنشأ عواطف غير مباشرة نتيجة العلاقة مع الآخرين مثل الحب والكراهية.

ويواصـل هـوم في تفصـيله للعواطـف وتوضـيح مـدى أهميتهـا ومـا قيمـة الـدور الـذي تقـوم بـه في بنـاء الأخـلاق وتوجيـه السـلوك الخلقـي فيعطينـا مـثلا يقينيـا حقيقيـا موجـود داخـل الطبيعـة الإنسـانية والـذي يؤكـد علـى أن العواطـف هـي مـن تـدفع حقيقـة الأفـراد للفعـل الخلقـي كمـا أنهـا هـي مـن تجعـل الأفـراد ينشـدون عاطفـة واحـدة ويتفقـون عليهـا وهـو التعـاطف المتأصـل في الطبيعـة البشـرية والـذي يعـني الميـل نحـو مشـاركة الآخـرين أفـراحهم وأقـراحهم، كمـا أنـه لا سـبيل إلى مشـاركة الآخـرين نحـوى قبـول معتقـدات الآخـرين مـع غيـاب الأسـس المنطقيـة لهـذا القبـول، كمـا يحتـوي علـى التقليـد أو المحاكـاة أي ميـل الفـرد إلى محاكاة حركات ونشاطات الآخرين[3]

---

[1] نقلا عن: محمود السيد أحمد ، الأخلاق عند هيوم، ص ص53، 54

[2] إبراهيم مصطفي إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص 342

[3] وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، ص 181

يستخدم هيوم لفظ العواطف ليدل به على شتى صنوف الغرائز والدوافع النفسية والميول والرغبات والإنفعالات بالإضافة إلى ما نصطلح اليوم على تسميته بالعواطف كالحب والكراهية، إلا أن هيوم برغم هذه السعة في معنى العواطف إلا أنه لا يريد للفظ أن يشمل الشعور باللذة والشعور بالألم، لأنه يجعل هذين ضمن الانطباعات الحسية أي في الجانب الإدراكي لا في الجانب الوجداني[1]، فاللذة والألم عند هيوم ضروب لانطباعات حسية خاصيتين ومختلفتين، فهو يعتبرهما أقرب من الذهن والإدراك أكثر من الجانب الباطني الداخلي.

المطلب الثالث: العقل ودوره في الأخلاق عند هيوم:

لقد استقبل فلاسفة الأخلاق نظرية دافيد هيوم في القيمة والأخلاق سواء في عهده أو ما بعده استقبالا فيه الكثير من الجفوة وعدم التعاطف، برغم أنه فيلوف المشاركة الوجدانية، فقد تبرؤا منه بحجة أنه لم ينصف الدور الذي يقوم به العقل في الأحكام الأخلاقية والقيمية والسلوك الأخلاقي، وأنه قلل إلى حد كبير من أهمية هذا الدور[2]، أي أن موقفه من العقل جعل الكثير من فلاسفة الأخلاق يعتبرون أن مذهب هيوم الأخلاقي يملك جانب سلبي كبير وذلك كونه قرر أن العقل ليس قادرا على تحديد الحدود بين الخير والشر.

ويرجع فلاسفة الأخلاق ذلك إلى عبارة هيوم الشائعة والتي يقول فيها: "إن العقل وحده لا يمكنه بحال أن يؤثر في الأفعال وأنه عبد للعواطف، ومن ثم لا يمكنه أن يدعي لنفسه أي مكانة غير أن يكون خادما لهذه العواطف ومطيعا لها، وأنه إذا كان لذلك فلا جدوى من زعمنا أن الأخلاق يمكن اكتشافها بالإستدلال العقلي وحده"[3]

ولكن في كتابه رسالة في الطبيعة البشرية يرى أن الحكم الأخلاقي قائم على الذوق والعاطفة، لكنه يشترط أن يقوم العقل بتحليل الموقف الذي نحن بإزائه لكي يتاح لنا الإلمام بعناصره فنقبله أو

---

[1] زكي نجيب محمود، رسالة في الطبيعة البشرية لدافيد هيوم، القاهرة، ص 112

[2] محمد محمد مدين، فلسفة هيوم الأخلاقية، دار التنوير، بيروت، 2008، ص 7

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

نرفضه[1]، وفي هذا التصريح من هيوم يتبين لنا أنه لم يغفل دور العقل تماما في مجال الأخلاق، فالعقل هو من يقوم بعملية التحليل للفعل الأخلاقي من أجل التعرف عليه بجميع صفاته وخصائصه ومن ثم نحكم .

كما أن هيوم لا ينكر أن العقل يلعب دورا مهما في الفعل الأخلاقي، فإذا كانت العاطفة تحثنا على الفعل وعلى إنجازه، فإن العقل له مهمة التبصير إذ يدلنا على قيمة المنفعة من حيث أساس الفضيلة، فمثلا قد أرغب بفاكهة ذات مذاق جيد ولكن عندما تقنعني بخطأي فإن رغبتي تتوقف، وقد أرغب بتأدية أفعال معينة بوصفها وسائل لبلوغ أي خير أو رغبة ولكن عندما تكون رغبتي الخاصة بهذه الأفعال ثانوية وتقوم على افتراض، فإن اكتشاف خطأ الافتراض يجعلني أتخلى عنها[2]، فالعقل يحدث وأن يكتشف لنا الطريق الذي يجب أن تقصده العاطفة، فالطرق متعددة للخير أو اللذة، والعاطفة تسعى إلى هكذا أشياء دون بصيرة ولكن العقل هو من يبين الطريق الصحيح الذي يجب المضي فيها، فالفعل يقوم بعملية تحليل للموقف الذي نحن بصدده في تلك اللحظة وبعد قيامه بعملية التحليل يتحقق لنا العلم إذا ما كان ينتهي بنا هذا الفعل إلى النفع أو الألم وهنا تتدخل العاطفة لتحركنا نحو الفعل أو تمنعنا عنه.

ولكن هيوم يؤكد على أن العقل لا يمكن أن يكون لوحده مصدر للحكم الخلقي فإذن ذلك مردود لأن المعرفة العقلية وحدها إدراك ,والإدراك لا يقتضي بالضرورة العمل كون أن الجانب الخلقي إرادة وعمل، كما أن الأحكام الخلقية تشتمل دائما على معنى الوجوب أي ما يجب علي القيام به وبالتالي الوجوب لا يكون من نتيجة مستنبطة من الواقع ,وبالتالي العقل لا يمكن أن يعطي أحكاما تتضمن معنى الوجوب كونه ,يقرر ما هو كائن فقط تلك اللحظة والآنية فقط، وبالتالي لا بد من مصدر آخر وهو مصدر وجداني داخلي متأصل في الطبيعة الإنسانية وهي الحاسة الخلقية والعاطفة[3]، أي أن العقل لا يحدد لنا ما يجب أن يكون كونه يكتفي فقط بتحديد ما هو كائن والمعروف أن

[1] زكي نجيب محمود، رسالة في الطبيعة البشرية، ص 113

[2] زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ص ص57، 58

[3] زكي نجيب محمود، رسالة في الطبيعة البشرية، ص 113

الأخـلاق تسـعى تحديـد مـا يجـب أن يكـون وهنـا يتضـح قصـور العقـل ودعـوى إلى ضـرورة وجـود مصـدر آخر

ومـن خـلال مـا سـبق يمكننـا القـول علـى حـد تعبـير هيـوم "أننـا لا نتحـدث بصـورة دقيقـة وفلسـفية عنـدما نتحـدث عـن صـراع العاطفـة والعقـل، فالعقـل عبـد للعواطـف وينبغـي أن يكـون كـذلك ولا يمكـن أن يـدعي علـى الإطـلاق أي وظيفـة أخـرى غـير خـدمتها وطاعتهـا"، أي أن الصـراع بـين العاطفـة والعقـل صـراع ظـاهري فقـط، فالعاطفـة وجـود أصـيل وليسـت نسـخة مـن وجـود آخـر وبالتـالي هـذا الوجـود الأصـيل لا يمكـن أن يعـارض الحقيقـة أو العقـل، فالعقـل لـه وظيفـة لا ينبغـي تجاهلهـا في الأخـلاق وإن كانـت هـذه الوظيفة ثانوية إذا قورنت بالوظيفة التي تنسب إلى العاطفة[1].

صـحيح أن هيـوم أكـد علـى الـدور الـذي تلعبـه العواطـف في تحديـد العديـد مـن سـلوكاتنا الأخلاقيـة، وصـحيح أنـه اعـترف بـدور العقـل حـتى وإن كـان دور ثـانوي علـى حـد تعبـيره، ولكـن هـذا الإعـتراف بـدور العقـل مـن هيـوم ألا يعتـبر تنـاقض مـن جهـة ,ومـن جهـة أخـرى أن هيـوم يـرى أنـه إذا حـدث وإن كـان الصـراع بـين العقـل والعاطفـة فإنـه يجـب أن نفسـح المجـال والطريـق أمـام العقـل[2]، كمـا أنـه أكـد أن العقـل هـو مـن ينـير طريـق العاطفـة باعتبـاره البصـيرة الـتي تسـير بهـا العاطفـة، فهـل هـذا يعـني أن دور العقـل حـتى هنـا دور ثـانوي؟ وإذا كـان دوره ثانويـا فكيـف نفسـر امتناعنـا عـن القيـام بعديـد الأفعـال الـتي ننشـد فيهـا الخـير والمنفعـة إذا كـان العقـل قـد اكتشـف لنـا فيهـا خطـأ؟ أهـذا الـدور أليـس دور مفصـلي ومركـزي ألا نعتبرالعاطفـة هنـا أمـة للعقـل؟، فمـن جهـة يعـترف بـدور العقـل ومـن جهـة أخـرى يعتـبر دوره ثانوي أليس هذا تناقض، فلا يمكن الإقتناع بأن قيام العقل بكشف خطأ العاطفة دور ثانوي.

[1] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 85

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص342

المبحث الثالث: الدين وعلاقته بالأخلاق والميتافيزيقا

إن الأهمية الكبيرة للدين في فلسفة هيوم جعلته يربطها بعديد المواضيع من أبرزها الأخلاق والميتافيزيقا، ولسبر أغوار هذه الأهمية سنحاول دراسة العلاقة بين الدين وهذه المواضيع.

المطلب الأول: علاقة الدين بالأخلاق

لقد أثبت التاريخ مدى العلاقة التي تربط الأخلاق بالدين كما أن هناك اعتراف عام في الديانات العليا تؤكد على أن إطاعة قوانين الأخلاق تحتل منزلة عليا بين الواجبات الدينية، ومن هذا يمكن القول أن تطور الأخلاق إنما بدأ من خلال الدين، هذا إن دل على شيء إنما يدل على الصلة القوية التي تؤكد مدى الإرتباط والتشابك بين الدين والأخلاق، فلا يمكن الحديث عن الدين من دون ذكر الأخلاق، كما أن ذكر الأخلاق يقودنا مباشرة إلى الحديث عن الدين وكما رأينا مع هيوم تفسيره للنظرية الدينية وكذا الأخلاقية سنحاول أن نكشف إذا ما كانت هناك علاقة بين الدين والأخلاق في الفكر الهيومي، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل: هل التفسير الهيومي للدين يتضمن الجانب الأخلاقي أم لا؟، وهل الأخلاق حقا تمثل منطلقا حقيقيا في فكر هيوم؟ أم أنها مستقلة عن الدين؟

إن هيوم من خلال أفكاره الدينية نجد بأنه يحاول تأسيس نظرية في الدين من خلال ملاحظة الطبيعة الإنسانية ذاتها من حيث أهوائها، وحاجاتها ودوافعها وميولها فضلا عن ملاحظة الفاعليات الإجتماعية[1]، كما أن هيوم في تفسيره للنظرية الأخلاقية أراد أيضا أن يجعل من الطبيعة أساسا للأخلاق، كما جعل من الحاسة الخلقية والعاطفة قاعدة صلبة وأساس نفسي يفسر به أي فعل أخلاقي، فالسلوك أو الفعل يكون أخلاقي إذا كان يمنح لذة وشعور بالارتياح ويكون غير أخلاقي إذا خلف ألما، ومنه فإن الخير والشر عند هيوم هما إحساس معين باللذة والألم وهما مقولتان أساسيتان في الطبيعة البشرية[2].

---

[1] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص 8

[2] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص ص46، 47

ما يمكن قوله عن الفكر الهيومي وفي تفسيره للظاهرة الدينية أو الأخلاقية أنه حاول من خلال أفكاره إقامة الدين والأخلاق على أساس نفسي سيكولوجي لما اعتبر أن الأساس الذي تفسر به كل من الظاهرة الدينية والأخلاقية هي الطبيعة الإنسانية، واعتبر أن الشعور الباطني والوجداني للفرد هو الذي يجعل الظاهرة الدينية أو الأخلاقية تتخذ صورتها وحقيقتها اللازمة، لنقول أن الدين والأخلاق عند هيوم تجمعهم الطبيعة البشرية تحت سقف الشعور الداخلي والوجداني وفق مقولتي الخوف والرجاء بالنسبة للدين والحاسة الخلقية والعاطفة بالنسبة للأخلاق.

كما أن النقطة المشتركة بين الدين والأخلاق في فكر دافيد هيوم هو أنه في كتبه التي تناولت فلسفته الدينية نجده يفسر المعتقدات الدينية على غرار تفسيره للأخلاق، فكما أن الأخلاق لا تقوم في العقل بل في العاطفة، فكذلك الدين لا يقوم في العقل ولا في الوحي والنقل، كما أنه لم ينشأ جراء تأمل العقل لحوادث الطبيعة ,بل جراء اهتمام الناس بما يجري في الحياة من حوادث هي موضع آمالهم وآلامهم ومخاوفهم فإذا, الدين يقوم في طبيعة الإنسان وفطرته بمعنى من خلال وجدانات الخوف والأمل التي تكون في النهاية قوة خفية عاقلة[1]، ومعنى هذا أنه بالإضافة إلى قيام كل من الظاهرة الدينية والأخلاقية عند هيوم على أساس نفسي قوامه الطبيعة البشرية، فإنه أيضا كلا الظاهرتين لا تعترف بالعقل ولا بدوره فالعقل سواء في الظاهرة الدينية أو الظاهرة الخلقية لا يلعب سوى دور ثانوي يجعله مجرد عبد في يد العاطفة تفعل به ما تشاء، فالعقل في الفكر الهيومي الديني جزء بسيط ضمن التركيبة الدينية القائمة على العاطفة والوجدان الداخلي.

ما يجمع أيضا بين الدين الأخلاق عند هيوم هو انتهاءه إلى الشك سواء في الظاهرة الدينية أو الأخلاقية، ففي تفسيره للدين شك في أدلة وجود الله ونقدها كما شك في جل مرتكزاته، كما انتقد أيضا الدين التوحيدي مفضلا عليه الدين الطبيعي، فإنه كذلك في مجال الأخلاق انتهى إلى الشك لما اكتشف أن التفسير السيكولوجي للظاهرة الأخلاقية قائم على الحاسة الخلقية ولكنه اكتشف أن هذه الأخيرة لا يمكنها أن تدفع الناس وتحركهم من أجل فعل أخلاقي مما دعا إلى ضرورة الإستنجاد بالعاطفة، ولكن هذا الإستنجاد يحتاج إلى العقل قبل الحكم على الفعل إذا ما كان يجلب منفعة أو

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص 349

ينجر عنه ألم، فقبل الحكم على الفعل بالخير أو الشر يجب أن يقوم العقل بعملية تحليل للموقف من أجل الإلمام بجميع عناصره ثم يأتي الحكم بالقبول أو الرفض، وبالتالي هذا الإستنجاد الضروري بالعقل جعل هيوم يخالف مذهبه، لا لشيء سوى لشكه في مطلقية التفسير السيكولوجي للأخلاق وعدم قدرة الحاسة الخلقية والعاطفة على الإلمام بالموقف الأخلاقي.

صحيح أن هناك بعض نقاط مشتركة في تفسير هيوم للظاهرة الدينية أو الأخلاقية إلا أن هذا لا يعني أن بينهما علاقة اتفاق أو تكامل عند هيوم بل العكس فتحليل فلسفة هيوم أثبتت انه لم يحاول المرة الربط بين الأخلاق والدين، وذلك لأنه رأى أن الأخلاق لا يمكن أن تؤسس على أي صورة من صور السلطة، على الرغم من أن الإعتقاد الديني قد يكون له أثره على العواطف وهذا مالا ينكره البعض وعلى أيه حال فإن هيوم لم يضع في اعتباره منفعة الإعتقاد الديني[1]، ومعنى هذا أن هيوم رفض أن تكون الأخلاق تحت سلطة الدين وهذا الامر مفروغ منه لأن هيوم وفيٌ لمذهبه الحسي التجريبي كونه يرفض أن تفسر الظاهرة الدينية أو الأخلاقية تفسيرا يخالف مذهبه وفكره كونه يرد تفسير كلا من الظاهرتين الدينية والأخلاقية إلى التفسير السيكولوجي القائم على الطبيعة الإنسانية، وبهذا التفسير الذي أسسه هيوم تأكيد لفكره كونه يؤكد بأنه ليس ثمة عند الإنسان إلا انطباعات حسية وأفكار، والأفكار عنده هي نفسها الانطباعات الحسية بعد زوال المؤثرات التي أحدثتها، وبالتالي يجب على أفكارنا الأخلاقية أن تكون كغيرها من الأفكار صورا لانطباعات حسية، وهذا ما يتفق مع مذهبه الرئيسي، بالإضافة إلى هذا فإن هيوم لا يهتم كثيرا بمنفعة الإعتقاد الديني كونه يؤمن بالمذهب التجريبي العلمي، ونجده قد اعتمد التفسير النفسي في الظاهرتين الدينية والأخلاقية ليقرب هذا التفسير من المجال العلمي أكثر ويبعده عن المجال الديني.

المطلب الثاني: الدين والميتافيزيقا

بعد ما تعرفنا على وجهة نظر هيوم حول النظرية الدينية وتفسيره السيكولوجي لها، فإن رفضه للدين كان واضحا وجلي كونه رفضه بكل أنواعه، سواء كان دين شرك او دين توحيد أو دين طبيعي، وقد كان رفضه للدين بسبب مرتكزاته التي لا تتوافق مع مذهبه التجريبي، هذه المرتكزات تمتاز بطابع

[1] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص ص26، 27.

الميتافيزيقا واللامحسوس والماورائيات، وهذا ما جعل الدين والميتافيزيقا حقلان غير متباعدين كونهما يشتركان في صفة الغيبية كما أنهما قائمين على الاستدلال العقلي والحدسي وكذلك الاستدلال القلبي الوجداني، وهذا ما جعلنا نتساءل: هل رفض هيوم للدين جعله ينفي الميتافيزيقا أيضا؟ أم أن طابعها الفلسفي جعله يقف منها موقف مغاير؟

أولا: تعريف الميتافيزيقا: ولتوضيح معنى الميتافيزيقا نتطرق إلى المفهومين اللغوي والاصطلاحي:

1- لغة: هي علم ما بعد الطبيعة، بالفرنسية metaphisique[1] وهو اسم لكتاب من كتب أرسطو يجيء في ترتيبه بعد كتاب الطبيعة[2]

2- اصطلاحا: يعود هذا المصطلح "علم ما بعد الطبيعة" إلى أحد أتباع أرسطو اسمه "أندرونيقوس" حين كان يرتب كتب أرسطو فاطلق هذا المصطلح على كتاب من كتب أرسطو يظم ثلاث مباحث مبحث المعرفة والأمور العامة للوجود، ومبحث الألوهية وأسس الوجود، وهذه المباحث كلها تشكل علما واحدا يقع بعد الطبيعيات في الترتيب فأطلق عليه هذا الإسم.[3]

كما يعتبر أيضا أحد أقسام الفلسفة، وقد اختلف مدلوله باختلاف العصور تبعا لقصره على مشكلة الوجود أو المعرفة، ومن أهم هذه الدلالات:

أ- عند الغرب: عند أرسطو والمدرسيين، هو علم المبادئ العامة والعلل الأولى، ويسمى الفلسفة الأولى أو العلم الإلهي عند ديكارت، معرفة الله والنفس عند كانط، مجموعة المعارف التي تجاوز نطاق التجربة وتستمد من العقل وحده[4].

ب- أما عند العرب: فعلم ما بعد الطبيعة عند الكندي، هو الفلسفة الأولى وعلم الربوبية أما الفارابي فهو العلم بالموجود بما هو موجود، أما عند ابن سينا فهو العلم الإلهي[5]

---

[1] جميل صليبا، ج2، المعجم الفلسفي، ص 300

[2] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص 204

[3] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ص 552

[4] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، ص 198

[5] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 300

ثانيا: الميتافيزيقا عند هيوم

قبل الحديث عن علاقة الدين بالميتافيزيقا لا بد من التصريح بأن موضوع الميتافيزيقا يعتبر بمثابة عقيدة فلسفية التي تطرح معتقد الفلاسفة في موضوعات ما بعد الطبيعة، مثل وجود الله وطبيعته وخلود النفس وطبيعة الحياة الآخرة، وسمات وخصائص العالم ما وراء الظواهر أو عالم اللامحسوس والمبادئ الأولى للوجود تعد بمثابة العقيدة الفلسفية الموازية للعقيدة الدينية، حيث توصل لها الفيلسوف بطريق مغاير لطريق الوحي، ومن ثم فإنها دين فلسفي (معنى مجازي) تمييزا لها عن دين الوحي الإلهي الذي جاء به الأنبياء[1]، بمعنى أن الدين وأمور الميتافيزيقا هي نقاط مشتركة تجمعها في إطار واحد كون أن كل من العقيدة الدينية والميتافيزيقا تسعيان إلى معالجة عالم ما وراء الظواهر وسائر أمور الغيب وبالتالي فموضوعها واحد وهذه أهم نقطة تجمعهم غير أن الإختلاف الظاهر بينهما هو أن الظاهرة الدينية يتوصل إليها رجل الدين عن طريق الوحي الإلهي فهي أكثر إعجازا من الظاهرة الميتافيزيقية التي يصل إليها الفيلسوف عن طريق الإستدلال العقلي المحض، غير أنه يجب الإشارة إلى أنه يجب الوضع في الاعتبار أن ما يتوصل إليه الفيلسوف ربما يتفق في بعض الأحيان مع ما جاء به النبي، وتقل أو تتسع مساحة الإتفاق من فيلسوف لآخر[2]

وهذا تأكيد آخر عن اشتراك الدين والميتافيزيقا في نقاط عديدة حيث يحدث أن نجد اتفاقا بين رجل الدين وفيلسوف في حين يكون الإختلاف بين الفيلسوف وفيلسوف آخر، ولهذا ربما حققت الميتافيزيقا مجازيا بأنها دين فلسفي لاشتراكهما وإتفاقها مع الدين لذا يمكن أن نطلق على فكر أي فيلسوف ميتافيزيقي بأنه دين فلسفي فنقول: ميتافيزيقا أفلاطون.

وكوننا بحاجة إلى فهم فلسفة هيوم والدور الذي قامت به من أجل أن نتعرف على وجهة النظر الحقيقية حول الميتافيزيقا كما عرفنا تتجاوز عالم الوجود إلى العالم اللامحسوس، ولهذا نتساءل، إذا ما كان الإيمان الكبير لهيوم بمنهجه التجريبي قد أدى به إلى نفي الميتافيزيقا نفيا كليا؟ أم أنه رفض الميتافيزيقا التقليدية فقط؟ وهل للميتافيزيقا علاقة بالدين؟

---

[1] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص 48.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

قبل الشروع في تبيان موقف هيوم من الميتافيزيقا يجب أن نذكر أهم العناوين الرئيسية لأعماله، حيث شملت رسالة هيوم في الطبيعة البشرية على ثلاث أبحاث أحدها تناول فيه الفهم الإنساني، وثانيها تناول فيه العواطف، وثالثها تناول فيه الأخلاق، ولعل المهم هنا هو محاولة هيوم تنظيم مشروعه الفكري الذي يسعى للإجابة به على الحدود والآفاق التي يستطيع وصول الفعل الإنساني لها، ولهذا بحث هيوم في الجوانب الثلاث للإنسان وهي المعرفة والعواطف والأخلاق[1]، ومعنى هذا أن هيوم من خلال أهم ما كتبه حاول أن يدرس كل الجوانب التي تخص الإنسان من أجل معرفة حدود الآفاق التي يستطيع الوصول إليها وكذلك الطريق التي يجب أن يتبعها في تحليله للأحكام القبلية والتحليلية والتركيبية.

والشيء الواضح في فكر هيوم هو أنه حاول أن يجعل من الميتافيزيقا علما دقيقا، ورأى أن هذا لا يتم إلا بجعل موضوعها يتمركز حول: "تحليل الطبيعة الإنسانية بطريقة منظمة" بهدف استكشاف مبادئ الطبيعة الإنسانية، فهو يريد نظرية عامة تماما عن تلك الطبيعة تفسر الأسباب التي تجعل الكائنات الإنسانية تفكر وتدرك وتفعل وتشعر[2]، فهيوم بهذه المحاولة أراد أن يجعل الميتافيزيقا أكثر علمية وذلك من خلال حصر مواضيعها في الإنسان وهذا ما يجعلها تتخلى عن طابعها المتعالي المثالي البعيد عن الموضوعية والدقة فقد سعى إلى رفض كل المعاني التي تجعل من الميتافيزيقا تتجاوز الإنسان، ولهذا حاول فهم الإنسان من خلال الميتافيزيقا في جوانبه الثلاث الفهم والأخلاق والعواطف.

نلاحظ أن الميتافيزيقا مع هيوم قد أصبحت علما للإنسان، كما أنها أصبحت أيضا ذات أهمية جوهرية لكل العلوم الأخرى كالهندسة والعلوم والطبيعة وحتى الدين الطبيعي، تعتمد كلها على علم الإنسان لأنها تخضع لمعرفة الإنسان وتحكمها طاقاته وقدراته، ولهذا وجب حسب هيوم معرفة حدود وطبيعة هذه القدرات والملكات[3]، ولهذا نجد هيوم قد حصر كل فلسفته في الطبيعة الإنسانية حيث نجد أن كل تفسيراته ترد إلى الطبيعة الإنسانية ومركزها الإنسان.

---

[1] المرجع السابق، ص 52

[2] المرجع نفسه، ص 56

[3] المرجع نفسه، ص 57.

ما يمكن قوله عن الميتافيزيقا عند هيوم أنه حاول أن يجعل محور اهتماماته القضاء على غموض أفكار الميتافيزيقا من خلال تحليل العقل الإنساني وطاقاته وحدوده وطبيعة أفكاره، وهذا ما يلخص أن موضوع الميتافيزيقا في القون الثامن عشر هو دراسة العقل الإنساني[1] خاصة مع هيوم وبعده إيمانويل كانط، وما يمكن قوله عن الميتافيزيقا عند هيوم أنه قد رفض الميتافيزيقا القديمة المشتملة على الوهم واستبدلها بالميتافيزيقا العلمية المحكمة.

ثالثا: علاقة الدين بالميتافيزيقا:

بعد ما تعرفنا على الميتافيزيقا عامة وتعرفنا كذلك على وجهة نظر هيوم فيما يخص الأمور والقضايا الميتافيزيقية سنحاول أن نستنتج العلاقة بين الدين والميتافيزيقا ولعل أبرز نقاط الاشتراك بينهما هي:

أن موضوعهما واحد ألا وهو الإنسان (عند هيوم) فالدين موجه إلى الإنسان ويسعى لخدمته ويسعى لملأ الفراغ الذي تخلفه النقائص الباطنية للإنسان مثل الخوف والقلق التي كانت تسيطر على الإنسان، وهنا يظهر دور الدين الذي يقدم تصورا معقولا وشاملا لعملية نشأة الكون وخلق الكائنات، ولعل التفسير العقلي للكون والظواهر الطبيعية من وجهة النظر الدينية تبعث الراحة والطمأنينة في نفسية الإنسان، أما الميتافيزيقا عند هيوم فقد عالجت الإنسان من جوانبه الثلاث الذهن والاخلاق والعواطف، وقد كان الإنسان موضوع الميتافيزيقا عند هيوم، ومن خلال الإنسان اتخذت الميتافيزيقا طابع العلمية ومنه أصبحت تتصف بصفة المشروعية والإجماع من طرف الفلاسفة وهذه أهم نقطة تجمع بين الدين والميتافيزيقا.

كما أن نقد هيوم الفلسفي للأدلة القبلية والبعدية وعلى تحديد طبيعة الله وإنكاره للأدلة على جوهرية النفس جعله هذا في نظر الفلاسفة أنه ليس ميتافيزيقيا، إلا أن هذا خاطئ لأن تفلسف هيوم على ذلك النحو إنما كان من أجل تقديم تصورات جديدة للكون والحياة والإنسان تجعله يتصرف أكثر على هذا العالم، وبالتالي فهو يقدم ميتافيزيقا جديدة تسعى لاكتشاف الحقيقة الموجودة داخل العالم[2]،

[1] المرجع السابق، ص 59

[2] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص 61

ومعنى هذا أن ما يهمنا هنا هو اتفاق الفلاسفة حول أن الميتافيزيقا تقتضي الإيمان من ناحية فلسفية بطبيعة محددة لله وجوهرية النفس، وهذا الربط الواضح بين الميتافيزيقا ومرتكزات الدين خير دليل على العلاقة الموجودة في العصور الحديثة عصر دافيد هيوم، كما أن ميتافيزيقا هيوم الجديدة لا تنفي الدين إنما تسعى إلى تفسير دقيق أكثر للعالم يقرب أكثر الحقيقة.

وبالإضافة إلى كل ما سبق وتوضيحا للحجة الثانية فإن هيوم حاول أن يثبت قصور العقل على إثبات أدلة وجود الله و سائر القضايا الميتافيزيقية, ما جعله يسعى إلى بناء ميتافيزيقا جديدة علمية يفسر بها العالم، كما أن العقل حسب هيوم لا يستطيع أن يثبت القضايا الدينية أو الميتافيزيقية، حيث نجده في كتابه "محاورات في الدين الطبيعي" يؤكد على أن العقل دائما ما يطرح قضايا متناقضة وبالتالي لا يمكنه الوصول إلى حقيقة يقينية مطلقة، حيث يعبر هيوم عن عجز العقل الإنساني عن إدراك مسائل ما بعد الطبيعة بقوله: "عندما ننظر في ما وراء الأمور البشرية وخصائص الأجسام المحيطة عندما ننتقل بتأملاتنا إلى اللانهائيين قبل وبعد الحالة الراهنة للأشياء، إلى خلق وتكون العالم إلى وجود وصفات الأرواح إلى قوى وأعمال روح كلية وحيدة لا بدء لوجودها ولا نهاية، مطلقة القدرة كلية العلم ثابتة لا نهائية وغير مدركة، عند ذلك فإنه يجب أن نبعد أدنى شك في أمور غير مدركة لأنها تجاوز كل ما نملك من قدرات"[1]، ومعنى هذا ان العقل لا يمكنه أن يصدر أحكاما حول أمور تتجاوز الواقع مثل علم اللاهوت, لأن قوانين العوالم غير الحسية تختلف عن قوانين هذا العالم الذي نعيش فيه وهنا يبقى العقل في حيرة من أمره، والنتيجة أن هيوم يرى بعجز العقل على إثبات مرتكزات العقيدة الدينية كما يعجز عن إثبات سائر قضايا الميتافيزيقا وهذه نقطة مشتركة أخرى بين الدين والميتافيزيقا، فالعقل حسب هيوم لا يستطيع أن يثبت بأدلته العقلية حقيقة وجود الله كحقيقة ميتافيزيقية وبالتالي فهو عاجز أيضا في قضايا الميتافيزيقا ولهذا نجد أن هيوم لا ينفي وجود الله وإنما يرى بعجز الأدلة العقلية على تفسير القضايا الميتافيزيقية، ولعل عجز العقل في كلتا الحالتين جعل هيوم ينادي بالميتافيزيقا العلمية ويغض النظر عن سائر الأمور اللامحسوسة والماورائيات بما في ذلك المرتكزات الدينية.

[1] المرجع السابق، ص84

ولكـن هيـوم تجـاوز هـذه المشـكلة بالنسـبة للعقـل النظـري ودعـى إلى تطبيـق العقـل العملـي مـن أجـل الكشـف عـن وجـود الله تعـالى وأن الميتافيزيقـا الجديـدة العلميـة في مقابـل الميتافيزيقـا التقليديـة، حيـث نجـده اعـترف في كتابـه محـاورات في الـدين الطبيعـي علـى لسـان محاوريـه بوجـود الله ولا سـيما "بـامفيلوس" وذلـك عـن طريـق العقـل العملـي (الأخـلاق الأمـل والمجتمـع)[1]، ويؤكـد ذلـك أيضـا علـى لسـان فيلـون عنـدما قـال "لا جـدال في أنـه حـين يعـالج ذو العقـل المتـزن هـذه الموضـوعات، فيسـتحيل أن يكـون موضوع الإشكال هو وجود الله بل طبيعته"[2]

فـالله موجـود ولكـن طبيعتـه لا يمكـن معرفتهـا كمـا هـي، أي أن هيـوم اعـترف بالإلـه كمـا اعـترف بالميتافيزيقـا ولكـن بطريقـة كانـت مخالفـة لمـن سـبقوه، حيـث اعتمـد علـى الميتافيزيقـا العلميـة والعقـل العملـي في إثبـات وتوضـيح الأمـور الدينيـة والميتافيزيقيـة لتبقـى هـذه فلسـفته الخاصـة والجديـدة في القـرن الثـامن عشـر، وقـد تـأثر بهـا كـانط لمـا قـال: "لقـد أيقظـني هيـوم مـن سـباتي الـدوغمائي العميـق" وفي هـذا القـول دليل على التأثر الكبير من كانط بهيوم وهذا يحسب لهيوم وفلسفته الجديدة في ذلك الوقت.

ومـا يمكـن قولـه في الأخـير ان فلسـفة هيـوم قائمـة علـى الطبيعـة الإنسـانية أي هـي فلسـفة خاصـة بالإنسـان وبالتـالي فـإن العلاقـة بـين الـدين والأخـلاق وكـذا الـدين والميتافيزيقـا في فكـر هيـوم تتوافـق فقـط في مـا يخـص {الموضـوعِ} ,أي أن كـل مـن موضـوع الـدين وموضـوع الأخـلاق والميتافيزيقـا هـو الإنسـان وربمـا هذا هو العامل المشترك في الحقوق الثلاث.

المطلب الثالث: أثر فلسفة هيوم الدينية والأخلاقية في الفلاسفة اللاحقين

إن الفيلسـوف أيـا كـان اتجاهـه وفلسـفته فهـو يعـيش في مجتمـع، ومـن ثمـة فهـو لـيس بمعـزل عـن الواقـع مهمـا كانـت أفكـاره مثاليـة مهـو يتـأثر ويـؤثر، وكونـه يعـيش هـذه العلاقـة فهـو مؤيـد أو رافـض، وكـذلك مؤيـد أو مرفـوض وهـذا مـا ينطبـق علـى فيلسـوفنا فيلسـوف الطبيعـة البشـرية دافيـد هيـوم حيـث بلـغ تـأثيره مـدى جـد واسـع خاصـة وأن إسـهاماته في مجـالات ونـواحي شـتى، في مجـال المعرفـة والأخـلاق

[1] المرجع السابق، ص 82

[2] نقلا عن: المرجع نفسه، ص 83

والسياسة والدين، والأمر الذي يجب التأكيد عليه أن آراء هذا الفيلسوف تحتل مكانة لا يمكن أن يتجاهلها في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، وقد بلغ تأثير هيوم في كثير من الفلاسفة حد جد كبير وهذا ما يجعلنا نتساءل : إلى أي مدى كان تأثير هيوم في باقي الفلاسفة الذين أتو من بعده؟ وهل كانت فلسفته مقبولة وتلقى الإجماع؟

إن المتتبع للفكر الفلسفي الحديث والمعاصر والمطلع على فكر هيوم يكتشف مدى درجة التأثير لهذا الفيلسوف في الفكر الألماني وبخاصة:

1/ إيمانويل كانط: حيث يقول محمد عثمان الخشت في كتابه "العقل وما بعد الطبيعة تأويل جديد لفلسفة هيوم وكانط: "أظهرتنا القراءة المتأنية والتحليلات المقارنة لنصوص هيوم وكانط على أعماق تجعل المرء يجزم بلا تردد بإمكانية النظر إلى هيوم وكانط باعتبارهما وجهين لشيء واحد، فكانط هو هيوم الألماني وهيوم هو كانط الانجليزي"[1]، ومعنى هذا أن العلاقة بين هيوم وكانط علاقة كبيرة تتمثل في التأثر والتأثير، ويمكن القول أن كانط هو صورة طبق الأصل لهيوم، وأن فضل هيوم على كانط جد كبير وهذا ما جعل الأخير يعترف بفضل هيوم لما قال: "لقد أيقضني هيوم من سباتي الدوغمائي العميق".

والتأكيد على التأثير الكبير والعميق بعد تسليط الضوء على فلسفة الرجلين نجد أن كلاهما كان لهما موضوع واحد في الفلسفة وهو "الإنسان"، ولهذا نجدهما قد درسا الإنسان من جوانبه الثلاث: المعرفة والعواطف والأخلاق، وكان الهدف من هذا هو توصلهم إلى الإجابة عن السؤال التالي وهو: ما هي حدود وآفاق الأصل الإنساني وماذا ينبغي أن يعمل؟

ويمكن أن نلاحظ بكل سهولة التوازي الموجود بين مشروعي الرجلين، من خلال العناوين الرئيسية لأعمالهما فقد اشتملت رسالة هيوم في الطبيعة البشرية على ثلاثة أبحاث، أحدها يتناول القيم الإنسانية والثاني تناول فيه العواطف والثالث تناول فيها الأخلاق، أما كانط فتوزعت فلسفته النقدية بين ثلاثة كتب مناظرة تماما لأعمال هيوم كالآتي: نقد العقل المحض، ونقد ملكة الحكم، ونقد العقل

[1] بن حجة عبد الحليم: القيم الأخلاقية بين المطلق والنسبي دراسة تحليلية نقدية لنظرية القيمة الأخلاقية عند كانط، رسالة لنيل شهادة ماجستير، جامعة وهران، 2013، ص46.

العملي[1]، وهذا تأكيد واضح على التأثر الكبير لهيوم في كانط ويمكن القول عليهما أنهما جهتان لعملة واحدة حتى أن ترتيب كتبهما من الناحية التاريخية كان بنفس الترتيب.

ويمكن القول أن تأثير هيوم على كانط كان عاملا في إرشاده وتنبيهه لما غفل عنه في فلسفته، أو محركا لتفكيره النقدي ويجب الإشارة إلى أن أكبر مفكر متأثر بهيوم هو "كانط".

2/ **آدم سميث:** كما يمكن أن نضيف إلى كانط المفكر "آدم سميث" مؤسس علم الاقتصاد الحديث خاصة في جانب الأخلاق وتفسير هيوم النفسي للأخلاق، حيث يتفق معه في أن الأخلاق قائمة على أساس العاطفة حتى أنه سمى عملا من أعماله: "نظرية العواطف الأخلاقية"[2]، ويمكن القول على آدم سميث بأنه كان من الأصدقاء المقربين من هيوم وهذا سر تأثره به.

كما أن فلسفة هيوم قد تركت آثارها أيضا على المفكرين الانجليزيين أمثال "جون ستيوارت ميل، وهربرت سبنسر" كون أن الأول قد أخذ بقانون "تداعي المعاني" الذي قال به هيوم، وأنكر المبادئ العامة الضرورية بينما جعل الثاني المعرفة كلها مكتسبة سواء اكتسبناها بأنفسنا أو ورثناها على السابقين[3]، كما نجد أن جون ستيوارت ميل قد تأثر بمسألة العلية عند هيوم قبل كانط خاصة في فكرة أن العلية ليست تصور قبلي في عقل الإنسان.

وما يمكن قوله في نهاية الأمر أن التأثير الواضح لهيوم في باقي الفلاسفة سواء تعلق الأمر بالفلاسفة الانجليز أو غيرهم، دليل واضح على مدى عظمة فكر الرجل ومدى عمق فلسفته ,وتأثر كانط خيرة الفلاسفة الألمان خير دليل على ذلك، ويكفي قول آلفريد آير* الفيلسوف النمساوي الوضعي المنطقي: **"إن هيوم على حد علمي أعظم جميع فلاسفة الانجليز"**[4]

---

[1] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص52

[2] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص106

[3] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص 353

* فيلسوف انجليزي معاصر، ولد في لندن تعلم في جامعة اكسفورد، كان استاذ الميتافيزيقا في هذه الجامعة من أهم مؤلفاته: اللغة والصدق والمنطق وطلب أن تقتصر الفلسفة فقط على التحليل.

[4] محمود السيد أحمد، الأخلاق عند هيوم، ص 105.

المطلب الرابع: الفلسفة الدينية والأخلاقية الهيومية في الميزان

لقد حاول هيوم البحث في نشأة الدين بطريقة مستقلة عن التاريخ المتعالي المقدس، وقد اعتمد على نوع من التحليل الطبيعي الذي ينطلق فيه من فحص الطبيعة البشرية في تطورها التاريخي من زاويتين إحداهما نفسية عقلية، معتمدا في هذا طريقة الاستنباط، ولكن ما يعاب على هيوم أنه لا يبذل أي جهد في تعقب وتقصي المعارف الاجتماعية والانثروبولوجية المتاحة بقلة في عصره عن المجتمعات البدائية، فضلا عن عدم ميله إلى تحليل النصوص المقدسة الآتية من الزمن القديم أو الحديث[1]، وهذا كونه يشك في كل ما لحقنا ووصلنا من الامم الماضية في اعتقاد منه أنهم يفتقدون لأدنى شروط التوثيق فهو يعاني من أزمة ثقة كونه يؤكد على تعرض الرواية التاريخية للتحريف، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، ما مصير كثير من معارفنا التي وصلتنا بفضل عملية التواتر فإذا كان ينبغي الشك في كل ما وصل لنا من الأمم السابقة فما مصير المعرفة من هذا وما مصير فكرنا الذي يشكل نصفه معارف متواترة؟ وزيادة على هذا فإذا سلمنا بفكرة هيوم وشككنا في كل شيء وصلنا ألا يعني هذا أن نشك في فكر هيوم وآراءه؟

كما أن النزعة الشكية لهيوم جعلتنا نقف موقفا غريبا في كل عنصر من عناصر نسقه الفلسفي خاصة الديني منها لأنها تقوم على العادة وعلى العاطفة وعلى الطبيعة الإنسانية إنها ردة لا شك فيها نحو فلسفة سوفسطائية جعلت من الإنسان مقياس كل شيء[2]، كما أن تأكيد هيوم على أن الشرك والتعدد كان هو المظهر الأول للدين، فقد انطوى على قفز من بعض المقدمات إلى نتائج عامة، والغريب أنه يقع في بعض الأخطاء العلمية الملفتة للانتباه عندما يصر على أن البشرية كانت كلها مشتركة ووثنية قبل 1700 سنة، مع أن التوحيد كان معروفا قبل ذلك بكثير، مثلا عند أخناتون و لاوتسو وزرادشت، فضلا عن الأمثلة التي يذكرها التاريخ المتعالي للدين في الكتب المقدسة[3]

---

[1] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص39

[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، ص353

[3] محمد عثمان الخشت، مرجع سابق، ص41.

بالاضافة إلى كل ما سبق نجد أن هيوم أيضا قد نفى دين التوحيد وآمن بالدين الطبيعي، وذلك لما فسر مصدرية الدين تفسير نفسي وأرجعه إلى الخوف والرجاء، لكن هذا المنطلق يتجاهل أن الدين التوحيدي موجه إلى البشر لفهمه وتفسيره عن طريق العقل من خلال التأمل والتدبر وليس من خلال الخوف والرجاء، ولعل أعظم دليل على هذا هو تقديس كل الديانات لملكة العقل والدعوى في كل كتبها المقدسة إلى إعمال العقل دليل كبير على الارتباط الوثيق بين العقل والنص الديني وربما مقولة القديس أوغسطين أقوى دليل على ذلك لما قال "أؤمن لكي تعقل واعقل لكي تؤمن"، دون أن ننسى ما جاء في القرآن الكريم من آيات ودلائل تدعوا إلى إعمال العقل والتدبر فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن إلا وفيها آية لإعمال العقل، فنجد في قوله تعالى: **{وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير}**[1]، وفي هذا دليل واضح على أن استعمال العقل فيه حكمة ونجاة في الدنيا والآخرة وفيه ربط واضح بين استعمال الانسان لعقله ومصيره ولو لم تكن درجة العقل كبيرة لما ربط بمصير الانسان، كما نجد قوله تعالى: {**وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون}**[2]، وأيضا قوله تعالى: {**ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون}**[3]، هذا بالإضافة إلى العديد من الآيات التي تدعو إلى إعمال العقل والكثير من القصص التي تبين قيمته، فكل هذا يوحي بأن الدين يرجع إلى العقل وتأملاته لا إلى النفس وأهوائها كما أقر هيوم لما أرجع كل شيء إلى الطبيعة الإنسانية.

كما نضيف حجة أخرى تفيد بأن هيوم كان في شك من أمره فقد كان يترك الباب مفتوحا عند نهاية كل فكرة خوفا منه وتسليما بأن هناك أدلة وحجج قد تأتي مستقبلا تنفي أفكاره وتثبت الأمور الميتافيزيقية التي كان هو ينفيها وينقدها، وذلك واضح في اعترافه بوجود الله والمعجزات، وأيضا اعترافه على لسان فيلون بإمكان وجود ظاهرة الوحي وهذا دليل واضح على شك هيوم وعلى عدم وثوقيته في كل ما وصل إليه ودافع عنه.

---

[1] سورة الملك، الآية 10

[2] سورة الرعد، الآية 12

[3] سورة العنكبوت، الآية 35

بالإضافة إلى أن هيوم في تحليله لمبدا السببية قد فسرها تفسير نفسي لما ردها إلى العادة لما أقر بأنه لا وجود لعلاقة ضرورية بين الأشياء وأن العلاقات العلية كلها مجرد عادة، فإنه بذلك فتح الباب للقول بأن أساس التتبع في العلم وفي الحياة اليومية هو العادة، فكيف لأكبر ممثل للاتجاه التجريبي أن يعتبر العادة أساس للتفسير والتنبؤ العلميين مع العلم بأن الإتجاه التجريبي لا يؤمن إلا بالقوانين الدقيقة التي لا شك فيه باعتبار أن العادة لا يمكن اعتبارها أساس علمي يقيني لأنها لا تحظى بالإجماع عند جل الفلاسفة والمفكرين.

لقد اكتشف هيوم ان مشروعه لإقامة المعرفة كلها على التجربة مهزوز من الأساس، فالنزعة التجريبية تقتضي ان تكون التجربة المعيار الوحيد لصحة المعتقدات ,والتجريبيون يؤمنون بحكمهم هذا إيمانا راسخا، غير منتبهين إلى انه يمكن السؤال :من اية تجربة استنتجوا نفس هذا الحكم ؟اية مشاهدة اوصلتهم إلى مثل هذا الجزم القائل بان الاحكام تأديها التجربة؟ فإذا أصروا على هذا الحكم سقط حكمهم عن الإعتبار بسبب انه غير تجريبي ,إذ ان الإيمان بالتجربة يستلزم إنكار الإيمان بالتجربة [1]

وهذا ما افضى بهيوم إلى ميوله نحوى الطبيعة ,غير ان الاستعانة بالطبيعة واعتبارها هي من تقوم بفرض التعاقبات والتقاربات علينا ,فمن الواضح انها هي من تقرر , مثل هذا الإنتقال الحتمي الضروري في ذهن الإنسان من تصور إلى آخر فإنه من الجلي ان حصيلة الاستنتاج العلي متوفر للجميع, ولن تعود ثمة حاجة إلى تنسيق منهج للتوصل إلى هذه الثمرة ,وإذا لم يحصل هذا الإنتقال الطبيعي ,والراد الاستنتاج العلي إقامة التداعي والانتقال ,فلن تعود الطبيعة سندا ودعامة للمعتقدات الناجمة عن الاستنتاجات العلية[2]

_بالإضافة الى كل ما سبق نجد ان العقيدة الاساسية التي يقوم عليها الدين ,هي وجود كائن مطلق لا متناهي ,وهي المبدأ نفسه الذي يقوم عليه علم يعد من اعظم ما انجز العقل البشري حتى الآن ,اعني علم الرياضيات الحديثة التي تفترض وجود اللامتناهي ,رغم ان اللامتناهي غير مرئي وغير خاضع

[1] محمد فتحي علي خان، فلسفة الدين عند دفيد هيوم، ترجمة حيدر نجف، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، ط1، 2016، ص34.

[2] المرجع نفسه، ص35

للمشاهدة والتجربة [1]فهل هذا يعني ان علم الرياضيات علم فيه شك بعد كل النتائج التي حققها هذا العلم.

_اما فيما يخص المعجزة فإننا نجد ان كل التجريبيون يأمنون بقانون الطبيعة ويتقبلونه دون اي شك ويفرضون على الإنسان الإيمان بان هناك احكام كلية تسمى قوانين الطبيعة فما الفرق إذا بين الإعتقاد بقانون الطبيعة وعدم الإعتقاد بوقوع المعجزة, أو ليس كل هذين الإعتقادين ممكن التبيين والتدليل على انهما ثمرة عملية طبيعية ,فلماذا نتقبل الاول باعتبار انه طبيعي ونرفض الآخر مع انه طبيعي ايضا[2].

_وزيادة على كل ما سبق فإن دفيد هيوم لا يكلف نفسه عناء دراسة اخبار المعجزات الخاصة في الاديان حيث يعتمد على بعض المشاهدات فيصدر حكما كليا بشان كل المعاجز في كافة الاديان ,فمن الافضل له دراسة اخبار المعاجز في الاديان المختلفة ,وان لا يطلق احكاما كلية من دون ان يكلف نفسه عناء دراستها وفحصها[3].

_إن هيوم يحاول بشدة طرح العقائد الدينية باعتبارها غير ممكنة التسويغ والتبرير ,لكنه يقع في هذا السبيل في فخ الإفراط ,ويتحدث عن ضرورة مراعاة معايير لو التزمنا بها عند الإعتقاد بالمعارف فلن يعود من الممكن الإعتقاد بشيء في اي مجال من المجالات .

_يستخدم هيوم منهج الاستنتاج العلي للتوصل إلى معتقدات مقنعة يقبلها العقل حول الدين والعقيدة الدينية ,لكن آراءه تفتقر للرزانة والانسجام الك قائما لازمتين بسبب مواقفه المزدوجة التي تخلق له تحديات حيال المعتقدات الدينية ولهذا نجده دائما ما يترك الباب مفتوحا في عديد الافكار خاصة الميتافيزيقا منها ,ويبقي الشك قائما حولها ولهذا استحق بجدارة لقب الفيلسوف الشاك.

---

[1] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، ص42

[2] محمد فتحي علي خان، فلسفة الدين عند دفيد هيوم، ص478

[3] المرجع نفسه، ص500

من خلال كل ما سبق يتبين لنا أن مبحث الأخلاق في فلسفة هيوم يحتل مكانة خاصة ويعتبر موضوع لا يقل أهمية عن موضوع الدين لا لشيء سوى لأنه يتعلق بالإنسان بالدرجة الأولى، حيث ينطلق في فلسفته الأخلاقية من أن العقل لا يمكنه أن يؤسس للأخلاق، بل ما يدفع الإنسان إلى العمل هي المشاعر والعواطف، فهيوم لم يخرج عن حدود مذهبه في نظريته الأخلاقية، فبحسبه أن الأخلاق أساسها الطبيعة البشرية وهي قائمة على أسس سيكولوجية حيث يعتبر أن معياري الخير والشر في المجتمع الإنساني هما اللذة والألم، فالخير ما يترك مشاعر الرضى والسرور داخل مشاعر الإنسان، والشر ما يسبب القلق والحزن.

وكون أن هيوم نفى دور العقل في فلسفته الأخلاقية فقد استبدله بالعاطفة والحاسة الخلقية كمرجعيتين أساسيتين تحكمان على أخلاقية العمل ,كونهما يعتبران نقطة اشتراك بين بني البشر، فهما يعملان معا من أجل دفع الإنسان إلى الالتزام بالفعل أو الابتعاد عنه، لهذا اعتبرهما هيوم مصدرين رئيسيين للأخلاق، كما أن السلوك الإنساني يجب أن يعتمد على شيء لديه قوة تحريك أو دفع تحث الإنسان على الفعل، وهذه الحاسة تنطبع بمؤثرات اللذة والألم فنقول على الفعل بأنه خير والشر لا لكونه كذلك بل لنوع تأثرنا به، وكون أن الأخلاق صادرة عن الغريزة كانت أصولها واحدة عند الجميع، وإذا كانت هناك اختلافات فإنها تعود إلى اختلاف الظروف فقط.

إن العلاقة بين الدين والأخلاق عند هيوم لا وجود لها ولا فائدة منه لأن الدين حسب هيوم قائم على مرتكزات تحط من قيمة الإله والدين في حد ذاته، وبالتالي لا يمكن ربط الأخلاق بالدين لأن ربطها به يجعلها تقترب من دائرة النسبية لنقول في الأخير أن الأخلاق مركزها الإنسان تحت لواء الغريزة الطبيعية ومن خلال ملكتي العاطفة والحاسة الخلقية اللتان تحددان الخير والشر وفق معياري اللذة والألم بعيدا عن كل تفسير ميتافيزيقي غيبي يحط من قيمة الأخلاق ويكسبها طابع النسبية والعجز.

خـــاتمـــة

خاتمة

وفي الختام يمكن إحصاء وإجمال النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث وهذه الدراسة فيما يلي:

_إن رفض هيوم لجل الامور الميتافيزيقية، جعله يحاول ان يطبع الميتافيزيقا بطابع العلمية من خلال إقامتها على تحليل الطبيعة الإنسانية وتنظيمها ,بهدف استكشاف كل الخبايا والمبادئ التي ترتكز عليها الطبيعة الإنسانية ,فهو يريد نظرية عامة تفسر الاسباب التي تجعل الكائنات الإنسانية تفكر, تدرك, تفعل وتشعر، فأصبحت بذلك الميتافيزيقا مع هيوم علما للإنسان ,لما اصبحت تتساءل عن شروط ومبادئ المعرفة والاخلاق والعواطف.

ما تميزت به فلسفة هيوم هو قيامها على الطبيعة الإنسانية مع التركيز على الجانب النفسي السيكولوجي في الإنسانة, ففي نظريته المعرفية ربط الإدراك الحسي بآليات وعمليات نفسية من خلال اعتماده على ملكتي الذاكرة والخيال ,اما في ما يتعلق بالدين في فلسفة هيوم، فقد أكد على ان الدين لا يقوم في العقل ولا في الوحي بل يقوم في طبيعة الإنسان وفطرته من خلال اهتمام الناس بآمالهم والتخلص من خوفهم ما جعل كل إنسان يتخذ إلهه هواه يحقق حاجياته وآماله ,وهنا يظهر الجانب النفسي في الفلسفة الدينية الهيومية، أما في التفسير الاخلاقي فقد اقامه هيوم على اساس سيكولوجي بحت لمل, ارتكز الحكم والتفسير الاخلاقي عنده على كل من العاطفة والحاسة الخلقية كمصدر لكل ما هو أخلاقي, ومنه فالأخلاق عنده ذاتية مرجعها الطبيعة الإنسانية واحوالها.

_أنكر هيوم الدين والمعجزات والإيمان وخلود الروح ووجود إله بالإعتماد على المنطق البرهاني حيث يصف إلحاده بانه إلحاد فلسفي ناتج من انه يشك في وجود إلاه ولكنه يحتمل وجوده، كما يجب الإشارة والتأكيد على ان هيوم كان دائما ما يترك الباب مفتوحا امام كل فكرة ميتافيزيقية، فهو يشك في وجود إله ولكنه لا ينفي وجوده بل يرى ان الدلائل العقلية عاجزة عن إثبات وجوده, كذلك الامر بالنسبة للمعجزات و الوحي والروح فهو يشك فيها لكنه يرى بجواز إمكانية وجودها عقليا. لنقول انه دائما ما ينتهي إلى الشك في كل فكرة يصل إليها ويترك الباب مفتوحا الحكم عليها ,وهذا ما يجعلنا نطلق على دفيد هيوم لقب الفيلسوف الشاك.

_كمـا ان هيـوم يؤكـد علـى ان الإنشـغال بـامور خـارج عـالم الظـواهر اي عـالم التجربـة الممكنـة, لابـد أن يسـفر عـن السـقوط في النقـائض ,اي ان الإنشـغال بـالأمور الميتافيزيقيـة الغيبيـة كـالله والـنفس والمعجزات والنفس يؤدي إلى الوقوع في النقائض.

_كمـا نسـتخلص ان هيـوم قـد نفـى ان تكـون هنـاك ايـة علاقـة بـين الـدين والاخـلاق لمـا اعتـبر ان الاخـلاق اكـبر مـن ان تنسـب إلى الـدين بـل الـدين هـو مـن يجـب ان ينسـب إلى الاخـلاق ,كمـا اعتـبر ان الـدين ينـزل بقيمـة الاخـلاق كونـه يحتـوي علـى تناقضـات ,كمـا ان فيـه العديـد مـن السـلبيات مثـل قيامـه علـى بعـض العبـادات الـتي تتسـبب بـبرودة وخمـول في القلـب, كمـا أن هـذه العبـادات الـتي تنطـوي علـى ثنـاء علـى الـذات الإلاهيـة تنـزل بقيمـة الإلـه ,كونهـا تصـور الإلـه علـى انـه محتـاج للثنـاء والحمـد فتنـزل بالإلـه إلى حالة البشر ,وبالتالي ستنزل بقيمة الاخلاق ومنه فلا علاقة بين الدين والاخلاق في فلسفة هيوم.

أ

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: قائمة المصادر

1. دفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ترجمة محمد محجوب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2008

2. دفيد هيوم، مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة موسى وهنة، دار الفارابي، بيروت، ط,2008.

3. دفيد هيوم،محاورات في الدين الطبيعي، ترجمة محمد فتحي الشنيطي،مكتبة القاهرة الحديثة،مصر،ط1، 1956

ثانيا: المصادر باللغة الأجنبية

1. [1]HUME DAVID ¨ATREALISE OF HUMEN NATURE;L.A SELBY_BIGGE OXFORD UNIVERCITY PRESS;UK;"1739.

2.“David hume” The natural history of religion

ثالثا: قائمة المراجع

1. إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء للطباعة والنشر,الإسكندرية,2001م.

2. إبراهيم مصطفى إبراهيم، منطق الاستقراء، جلال حزي وشركائه للنشر، الاسكندرية، 1999

3. أحمد أمين، الأخلاق، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1931.

4. إيريك فروم، الدين والتحليل النفسي، تر فؤاد كامل، مكتبة غريب، 2003.

5. أيوب أبو دية، العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط1، 2009.

6. أيوب دخل الله، التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1996.

7. برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، الدار المصرية العامة للكتابة.

8. توفيق الطويل،الفلسفة الخلقية{نشأتها وتطورها}،دار النهضة العربية،مصر،دط،1976م.

9. جاكلين لاغريه،الدين الطبيعي،تر منصور القاضي،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 1993م.

10. ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة, تر احمد محمود, مكتبة الأسرة، برعاية سوزان مبارك.

11. زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1 ,1936.

12. زكي نجيب محمود،رسالة في الطبيعة البشرية ،لدفيد هيوم،القاهرة،دط،دت.

13. الشريف زيتوني، مشروعية الميتافيزيقا من الناحية المنطقية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،ط1، 2006م.

14. عبد الزهرة البندر، منهج الاستقراء في الفكر الاسلامي –أصوله وتطوره–، دار الحكمة للطباعة والنشر، مصر، ط1، 1992.

15. فراس السواح، دين الإنسان–بحث في ماهية الدين ونشا الدوافع الإنسانية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع, ط4, 2002.

16. لواء أحمد عبد الوهاب، الإسلام والأديان "نقاط تشابه واختلاف" مكتبة التراث الإسلامي, القاهرة.

17. محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء، دار التعارف للمطبوعات، بيروت, ط5, 1986.

18. محمد عبد الفتاح المهدي, سيكولوجية الدين والتدين, فجر الإسلام, الاسكندرية, ط1, 2002.

19. محمد عبد الله شرقاوي، الأسباب والمسببات، دار الجبل، بيروت، ط1، 1997.

20. محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم،دار قباء للطباعة والنشر القاهرة،دط.

21. محمد عثمان الخشت، مدخل إلى فلسفة الدين، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة،2001.

22. محمد فتحي علي خان،فلسفة الدين عند دفيد هيوم،تر حيدر نجف،المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية العتبة العباسية المقدسة،ط1، 2016م.

23. محمد محمد مدين،فلسفة هيوم الأخلاقية،دار التنوير،بيروت،دط، 2008م.

24. محمد مهران رشوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة.

25. محمود السيد أحمد،الأخلاق عند هيوم،دار الثقافة للنشر والتوزيع،مصر،ط1، 1998م.

26. محمود فهمي زيدان، الاستقراء والمنهج العلمي، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، 1977.

27. ناصر ابن عبد الله القفاري وناصر ابن عبد الكريم العقل، الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة, دار الصميغي للنشر والتوزيع، ط1، 1992.

28. وليام ليلى، مقدمة في علم الأخلاق، تر: علي عبد المعطي محمد، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، ط2، 2000م.

29. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف القاهرة,ط5.

رابعا: الموسوعات والمعاجم

1. إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، دط، 1983م.

2. أندري لالاند، الموسوعة الفلسفية،ج1، تع: أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت لبنان.

3. جميل صليبا، المعجم الفلسفي ج2، دار الكتاب اللبناني, بيروت،1982م.

4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.

5. عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984م.

6. علي مولا، الموسوعة العربية، مج1، منتدى مكتبة الإسكندرية، مصر، ط1، 1998م.

7. كميل الحاج، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2000.

8. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007.

9.

10. لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، الموسوعة الفلسفية، ،إشراف: روزنتال بودين، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

خامسا: الرسائل والمذكرات

1. هدى بوفضة، دور الدين في بناء الحضارة أرلوند توينبي، مذكرة تخرج، رسالة ماجستير فلسفة، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، قسم الفلسفة، قسنطينة، 2007، 2008.

2. بن حجبة عبد الحليم، القيم الأخلاقية بين المطلق والنسبي "دراسة تحليلية نقدية لنظرية القيمة الأخلاقية عند كانط"، رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، 2013.

المحتويات

فهرس الموضوعات **الصفحة**

شكر وتقدير

الإهداء

مقدمة.....**1**

الفصل الأول: مدخل تمهيدي.....**6**

المبحث الأول: السيرة الذاتية لدفيد هيوم.....**8**

المطلب الأول:حياته.....**8**

المطلب الثاني:مؤلفاته.....**9**

المطلب الثالث: نظرية المعرفة عند هيوم:.....**10**

1–الذاكرة والخيال:.....**12**

2–تداعي الأفكار:.....**13**

3_قوانين تداعي الافكار:.....14

المبحث الثاني : الخلفية المعرفية لهيوم.....**15**

أولا: جون لوك: 15

ثانيا:جورج باركلي.....**16**

المبحث الثالث: الظاهرة الدينية.....**19**

المطلب الأول: تعريف الدين.....**19**

1/ الدين عند الفلاسفة 21

2/ الدين عند علماء الإجتماع.....22

3/ الدين في إصطلاح علماء النفس.....23

المطلب الثاني: النظريات المفسرة للدين.....24

الطائفة الأولى: النظريات التطورية.....25

الطائفة الثانية: التظريات الإعتقادية.....25

المطلب الثالث: أهم الديانات.....27

أولا: اليهودية:.....27

ثانيا: المسيحية(النصرانية): 29

ثالثا: الإسلام:.....30

المطلب الرابع:الدين في العصر الحديث.....30

الفصل الثاني: الدين والميتافيزيقا عند هيوم.....33

المبحث الأول: الفلسفة الدينية.....35

المطلب الأول: أصلالدين.....35

المطلب الثاني: تفسير الدين.....36

المطلب الثالث: أصل الدين في الفترة الحديثة (عصر هيوم).....37

المبحث الثاني: موقف هيوم من المرتكزات الميتافيزيقية للدين.....40

المطلب الأول: نقد هيوم لأدلة وجود الله.....40

المطلب الثاني: مسألة الروح عند هيوم.....45

المطلب الثالث: المعجزات عند هيوم.....47

المبحث الثالث: العلية عند هيوم.....53

المطلب الأول: مفهوم العلية:.....53
المطلب الثاني: تصور الفلاسفة للعلية قديما وحديثا 54
1/ العلية عند الفلاسفة السابقين على هيوم.....55
2/ تصور الفلاسفة للعلية في العصر الحديث.....58
المطلب الثالث: تفسير العلية عند هيوم.....59
اولا: نقد التفسير العقلي للعلية:.....60
ثانيا: نقد التفسير التجريبي للعلية:.....61
ثالثا: التفسير النفسي لمبدأ العلية.....63
الفصل الثالث: مكانة الأخلاق في الفكر الديني الهيومي.....66
المبحث الأول: الخلفية الأخلاقية لهيوم.....68
المطلب الأول: مفهوم الأخلاق:.....68
المطلب الثاني: المسار الكرونولوجي للأخلاق قبل هيوم.....68
أولا: مدرسة الحاسة الخلقية:.....73
ثانيا: المدرسة العقلية.....76
المبحث الثاني: الأخلاق عند هيوم بين نقد العقل وتأسيسها نفسيا.....78
المطلب الأول: نقد التفسير العقلي للأخلاق.....78
المطلب الثاني: مصدرية الأخلاق عند هيوم.....81
1/ الحاسة الخلقية.....81
2/ العاطفة:.....83

المطلب الثالث: العقل ودوره في الأخلاق عند هيوم:.....85

المبحث الثالث: الدين وعلاقته بالأخلاق والميتافيزيقا.....88

المطلب الأول: علاقة الدين بالأخلاق.....88

المطلب الثاني: الدين والميتافيزيقا.....90

أولا: تعريف الميتافيزيقا:.....91

ثانيا: الميتافيزيقا عند هيوم.....92

ثالثا: علاقة الدين بالميتافيزيقا:.....94

المطلب الثالث: أثر فلسفة هيوم الدينية والأخلاقية ف الفلاسفة اللاحقين.....96

المطلب الرابع: الفلسفة الدينية والأخلاقية الهيومية في الميزان.....99

خاتمة.....105

قائمة المصادر والمراجع.....108

فهرس الموضوعات.....111